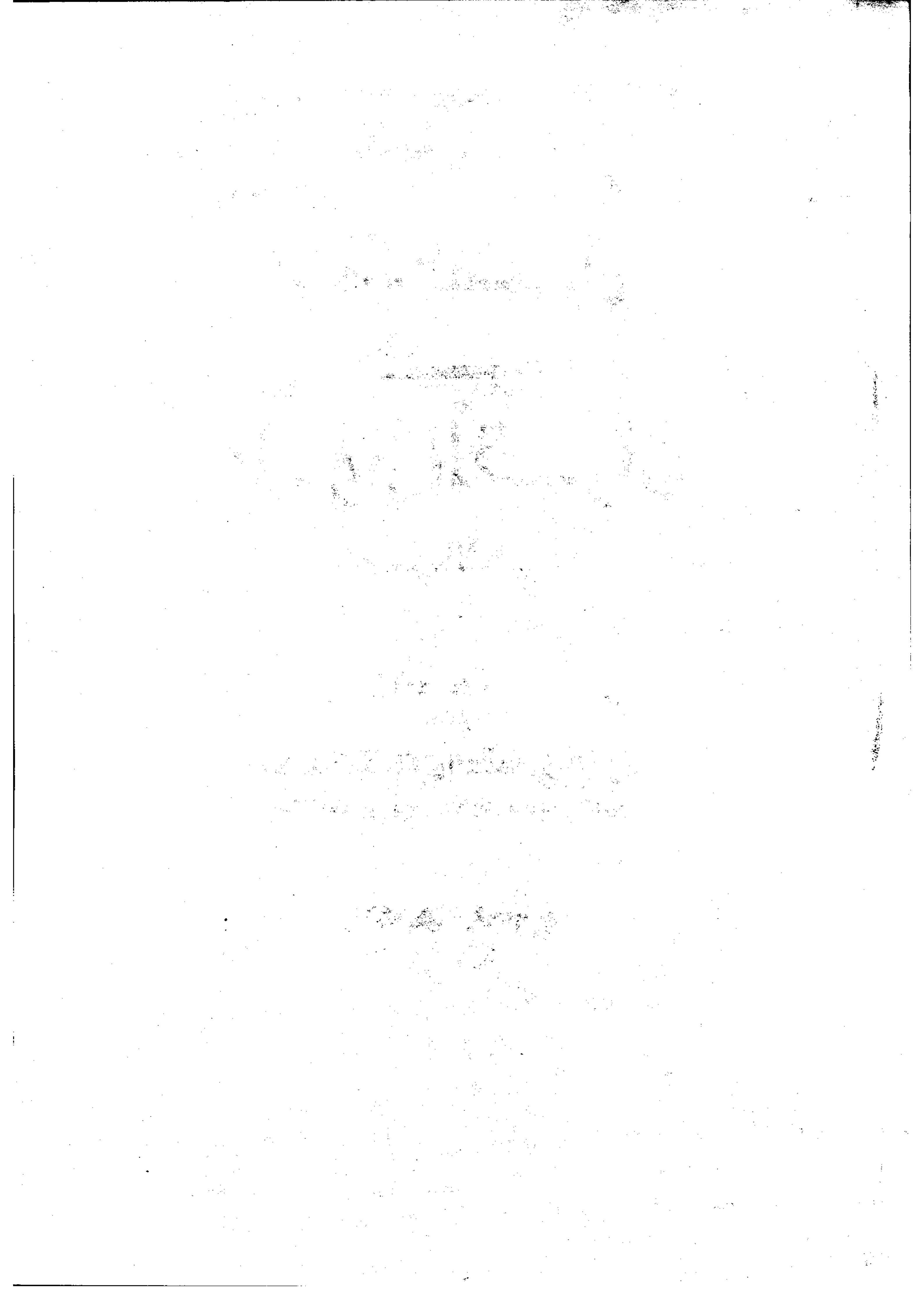
جامعة الأزهر
كلية الدراسات الإسلامية و العربية
بالإسكندرية

مورد الظمآن في علوم القرآن

الجزء الأول

إعداد
الدكتور
محمد الطنطاوي الطنطاوي جبريل
أستاذ التفسير وعلوم القرآن المساعد بالكلية

١٤٢٤ هـ - ٢٠٠٤ م



بسم الله الرحمن الرحيم

﴿ نور على نور يهدي الله لنوره من يشاء ﴾

صدق الله العظيم

تقديـــــم

بسم الله الرحمن الرحيم

الحمد لله رب العالمين ، أرسل رسوله بالهدى ودين الحق ، وأنزل عليه قرآنا عربيا غير ذى عوج ، وأمرنا بتدبره فقال : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن أم على قلوب أقفالها ﴾ [محمد : ٢٤] .

وبعد ،،،

فإن شرف كل علم يستمد من شرف ما يتصل به ، ولما كان كتاب الله تعالى أعظم شىء فإن علم علوم القرآن قد استمد شرفه منه ، ولقد سبقنى فى هذا العمل علماء أجلاء ، وأساتذة فضلاء ، فأحببت أن أشارك بهذا العمل المتواضع فى علوم القرآن ، راجيا المولى – عز وجل – أن يتقبله منى .

لقد وضعت لهذا الكتاب عنوانا هو : مورد الظمآن فى علوم القرآن.

وفى هذا الكتاب قمت بتعريف علوم القرآن ، والحديث ، وفرقت بين القرآن الكريم والحديث ، ثم تكلمت عن الوحى ، وعن نزول القرآن، وعن المكى والمدنى ، وعن أسباب النزول وعن إعجاز القرآن ، وعن آداب قراءة القرآن ، وعن أحكام تتعلق باحترام كتاب الله تعالى ، وضحت ، ورددت على بعض الشبه التى تتصل بهذه الموضوعات .

والله أسأل أن ينفع به ، وأن يجعل ذلك فى ميزان حسنات والدىَّ إنه سميع مجيب .

﴿ سبحانك ربنا لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم ﴾ .

[البقرة : ٣٢]

الدكتـــور

محمد الطنطاوى الطنطاوى جبريل

المبحث الأول

التعريف بعلوم القرآن وتاريخ ظهورها

١ - تعريف علوم القرآن :

من الضرورى أن ألقى الضوء على معنى « علوم القرآن » باعتبارها المدخل إلى علوم القرآن ، وهذا المركب الإضافى يتكون من كلمتين « علوم » و« القرآن » ، وكلمة علوم جمع علم وللعلم إطلاقات متعددة . فهو فى اللغة : مصدر يرادف الفهم والمعرفة ، ويرادف الجزم أيضا فى رأى من الآراء .

أما فى الإصطلاح فله تعريفات مختلفة :

١ - عرفه الراغب فى مفرداته بأنه : إدراك الشىء بحقيقته وقسمه قسمين : إدراك ذات الشىء ، وهذا هو المتعدى إلى مفعول واحد مثل قوله تعالى : ﴿ لا تعلمونهم الله يعلمهم ﴾ [١] . والثانى : الحكم على الشىء بوجود شىء هو موجود له ، أو نفى شىء هو منفى عنه ، وهذا هو المتعدى إلى مفعولين نحو قوله تعالى : ﴿ فإن علمتموهن مؤمنات ﴾ [٢] .

وقسم الراغب العلم تقسيمات أخرى فقال : والعلم من وجه ضربان : نظرى وعملى .

فالنظرى : ما إذا علم فقد كمل نحو العلم بموجودات العالم .

والعملى : ما لا يتم إلا بأن يعمل كالعلم بالعبادات .

---

(١) سورة الأنفال آية ٦٠ .

(٢) سورة الممتحنة آية ١٠ .

وقال : ومن وجه آخر ضربان : « عقلي وسمعي » [١] .

وعرفه الشيخ الزرقاني تعريفات مختلفة فقال :

١ – عند الحكماء : صورة الشيء الحاصلة في العقل أو حصول الصورة في العقل ، أو تعلق النفس بالشيء على جهة انكشافه .

٢ – عند المتكلمين : صفة يتجلى بها الأمر لمن قامت به .

٣ – وفي لسان الشرع العام : يطلق على معرفة الله تعالى وآياته ، وأفعاله في عباده وخلقه .

٤ – وعند علماء التدوين : يطلق على المعلومات المنضبطة بجهة واحدة .

وقال الشيخ الزرقاني : « والذي يعنينا كثيراً هو العلم في اصطلاح علماء التدوين ؛ لأننا بصدد الكلام في علوم القرآن كفن مدون » [٢] .

أما كلمة القرآن فقد اختلف العلماء في إطلاقها اللغوي على أقوال :

١ – **القول الأول** : أنها كلمة جامدة غير مشتقة ، وأنها علَم أو اسم خاص بكلام الله تعالى المنزل على النبي محمد – صلى الله عليه وسلم – سماه الله به كما سمى كلام الله المنزل على موسى – عليه السلام – بالتوراة ، والمنزل على عيسى – عليه السلام – بالإنجيل ، والمنزل على داود – عليه السلام – بالزبور ، ولم يعرف أن أحدا من البشر هو الذي أطلق هذه التسمية . وإلى هذا الرأي ذهب الإمام الشافعي .[٣]

---

(١) مفردات الراغب ٣٤٣ .

(٢) مناهل العرفان ١/١٢-١٣ بتصرف .

(٣) تاريخ بغداد للخطيب ٢/٦٢ .

٢ - القول الثانى : أنها - أى كلمة القرآن - مشتقة من قرأ المهموز.

لكنهم اختلفوا أيضاً هل هى من قرأ بمعنى تلا أو بمعنى جمع أو بمعنى أظهر ؟

أ - قال اللحيانى : إن كلمة القرآن مشتقة من الفعل قرأ بمعنى : تلا ، فكلمة القرآن مصدر الفعل قرأ وهو مصدر مرادف قراءة ، وهو على وزن فُعلان كرجحان وبرهان وشكران . وسمى به المقروء تسمية للمفعول بالمصدر .

ب - ذهب الزجاج : إلى أن كلمة القرآن مشتقة من الفعل قرأ بمعنى جمع ، وهى مصدر الفعل قرأ بمعنى جمع ، وهو يرادف المصدر قرءاً بمعنى جمعا ، ومنه القول : قرأ الماء فى الحوض أى جمعه فيه. قال أبو عبيد : سمى القرآن قرآنا ؛ لأنه جمع السور بعضها إلى بعض .

وقال الراغب : سمى قرآنا لكونه جمع ثمرات الكتب السابقة المنزلة من عند الله تعالى .

وقيل : لأنه جمع أنواع العلوم كلها بمعان ؛ كما قال تعالى ﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شىء ﴾ (١) .

جـ - قال بعض المتأخرين : إن مادة القرآن قرأ بمعنى أظهر ، ولا يكون القرآن وقرأ مادته بمعنى جمع ؛ لأن الله تعالى قال : ﴿ إن

---

(١) سورة الأنعام آية ٣٨ .

علينا جمعه وقرآنه ﴾ [1] فعطف بين لفظتى (جمعه) و(قرآنه) والعطف يقتضى المغايرة ، والقارئ يظهر القرآن ويخرجه ، والقرء : الدم ، بظهوره وخروجه . والقرء : الوقت ؛ فإن التوقيت لا يكون إلا بما يظهر » .[2]

٣ – القول الثالث : أنها – أى كلمة القرآن – مشتقة من قرن .

لكنهم اختلفوا : هل هى من قرن الشىء بغيره بمعنى : ضم الشئ إلى غيره أو بمعنى دل على ؟

أ – ذهب الأشعرى إلى أن كلمة القرآن مشتقة من قرنت الشئ بالشئ إذا ضممته إليه ، فكلمة القرآن مصدر الفعل قرن ، وهو مرادف للمصدر قرنا بمعنى ضما . فسمى بذلك لقران السور والآيات والحروف فيه ، ومنه قيل للجمع بين الحج والعمرة : قران .

ب – ذهب الفراء والقرطبى إلى أن كلمة القرآن مشتقة من قرن بمعنى: دل على أو أشار إلى وكلمة القرآن مصدر للفعل قرن وهو مرادف المصدر قرينة وجمعه قرائن ، سمى بذلك ؛ لأن آياته يصدق بعضها بعضا ، ويشابه بعضها بعضا فى الإعجاز فهى حينئذ قرائن .[3]

ولقد اختار الإمام السيوطى الرأى الأول فقال : « والمختار عندى فى هذه المسألة ما نص عليه الشافعى » [4] ورجح البعض ما ذهب إليه اللحيانى .[5]

---

(١) سورة القيامة آية ١٧ .

(٢) البرهان ١/٣٤٨ .

(٣) الإتقان فى علوم القرآن / ٧٠ .

(٤) نفس المصدر السابق والصفحة .

(٥) انظر مناهل العرفان ١/١٤ ، علوم القرآن والحديث ١٠ للشيخ أحمد داود .

وأعتقد أنه لا خلاف بين ما ذهب إليه الإمام الشافعى وما رجح غيره من أن اللفظ مشتق ؛ لأن الله سبحانه وتعالى هو الذى سماه « القرآن » ، ويحث الباحثون بعد ذلك عن أصل هذه التسمية واشتقاقها أهى من قرأ أو من قرن ؟ على نحو ما وضحت .

تعريف القرآن إصطلاحا :

« هو كلام الله العربى ، المنزل على نبينا محمد – صلى الله عليه وسلم – المنقول إلينا تواترا ، المتعبد بتلاوته ، المتحدى به وبأقصر سورة منه ، المكتوب بين دفتى المصحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس » .

شرح التعريف وإخراج المحترزات :

١ – القرآن كلام الله تعالى ، قال سبحانه : ﴿ وإنك لتلقى القرآن من لدن حكيم عليم ﴾ [١] خرج بقولنا (كلام الله) كلام غير الله تعالى من كلام المخلوقات كالملائكة والجن والإنس فإنه لا يسمى قرآنا ، مهما سما فى بيانه وفصاحته ومعناه ، ككلام الرسول – صلى الله عليه وسلم – .

٢ – « العربى » قال تعالى : ﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴾ [٢] وخرج بقولنا (العربى) كل ترجمة تفسيرية أو ترجمة لمعانى القرآن الكريم ، فإنها لا تسمى قرآنا .

٣ – « المنزل على نبينا – صلى الله عليه وسلم – » أى نزل به جبريل –

---

(١) سورة النمل اية ٦ .

(٢) سورة يوسف آية ٢ .

عليه السلام - على قلب محمد - صلى الله عليه وسلم - قال تعالى: ﴿ نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ﴾ [1] وخرج بهذا القول ما لم ينزل به جبريل كالإلهام ، والرؤيا في المنام ، فإنه لا يسمى قرآنا ، وخرج أيضا ما نزل على الأنبياء السابقين كالتوراة والإنجيل والزبور وغيرها .

٤ - « المنقول إلينا تواتراً » أي قطعي الثبوت وخرج بهذا القيد جميع ما سوى القرآن الكريم من منسوخ التلاوة ، أو القراءات غير المتواترة ، سواء أكانت مشهورة كقراءة عبد الله بن مسعود كلمة متتابعات عقب قوله تعالى : ﴿ لا يؤاخذكم الله باللغو في أيمانكم ولكن يؤاخذكم بما عقدتم الأيمان فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة فمن لم يجد فصيام ثلاثة أيام ﴾ [2] أم كانت آحادية كقراءة ابن مسعود أيضا لفظ « متتابعات » عقب قوله سبحانه : ﴿ فمن كان مريضا أو على سفر فعدة من أيام أخر ﴾ [3] فإن شيئا من ذلك لا يسمى قرآنا ، ولا يأخذ حكمه [4] ، وخرجت الأحاديث القدسية غير المتواترة .

٥ - « المتعبد بتلاوته » المراد أن تلاوته عبادة يثاب عليها القارئ ، وأنها تجزئ في الصلاة ، ولا تصح الصلاة بغير تلاوة القرآن ، وخرج بقولنا : المتعبد بتلاوته : الأحاديث القدسية فإنها على الرأي

---

(١) سورة الشعراء آية ١٩٣ - ١٩٤ .

(٢) سورة المائدة آية ٨٩ .

(٣) سورة البقرة آية ١٨٤ .

(٤) مناهل العرفان ١/ ٢٠-٢١ .

القائل بأن لفظها ومعناها من عند الله – لا يتعبد بتلاوتها ، ولا تجزئ في الصلاة ، وكذلك الايات منسوخة التلاوة فإنه لا يتعبد بتلاوتها .

٦ – « المتحدى به وبأقصر سورة منه » لقد وقع التحدى للعرب وللبشرية جمعاء بالقرآن الكريم على ثلاث مراحل : المرحلة الأولى: تحداهم الله أن يأتوا بمثله فعجزوا . المرحلة الثانية : تحداهم الله أن يأتوا بعشر سور مثله فعجزوا . المرحلة الثالثة : تحداهم الله أن يأتوا بسورة واحدة فقط فعجزوا ، وخرج بهذا القيد الحديث القدسى أيضا ؛ فإنه لم يقع به التحدى .

٧ – « المكتوب بين دفتى المصحف من أول سورة الفاتحة إلى آخر سورة الناس » ويراد به ما دون فى جمع أبى بكر القرآن ومصحف عثمان – رضى الله عنهما – فهذا المكتوب هو الذى تواتر عليه الصحابة عندما بدأ أبو بكر جمع القرآن متحرياً الدقة البالغة فى هذا العمل الجليل وعلى نهجه سار عثمان – رضى الله عنهما – وخرج بهذا القيد ما كان منسوخ التلاوة ، وما كان زيادة فى مصاحف بعض الصحابة ولم تكن إلا إيضاحات وتفسيرات باتفاق العلماء ، ولم يضفها الصحابة إلى مصاحفهم على أنها من القرآن الكريم .

وبعد هذا التوضيح والشرح للتعريف نصل إلى أن المراد من لفظ « علوم القرآن » طوائف المعارف المتصلة بكتاب الله عز وجل من ناحية نزوله ، وترتيبه وجمعه ، وقراءته وتفسيره ، وإعجازه ، وناسخه ومنسوخه وغير ذلك .

٢ - سبب جمع كلمة علوم فى « علوم القرآن » :

جمعت كلمة علوم ؛ لأنها تشمل كل علم يخدم القرآن الكريم ، أو يستند إليه وهذه العلوم كثيرة ومنها : علم التفسير ، وعلم القراءات ، وعلم الرسم العثماني ، وعلم إعجاز القرآن ، وعلم أسباب النزول ، وعلم الناسخ والمنسوخ ، وعلم إعراب القرآن ، وعلم غريب القرآن ، إلى غير ذلك من العلوم المتصلة به .

٣ - علام تطلق كلمة القرآن ؟

تطلق كلمة القرآن ويراد بها كل القرآن الكريم يقول الله تعالى ﴿ إنا أنزلناه قرآنا عربيا لعلكم تعقلون ﴾ (١) فالمراد من لفظ (قرآنا) فى هذه الآية كل القرآن .

وتطلق كلمة القرآن ويراد بها بعض القرآن الكريم . يقول الله تعالى: ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾ (٢) فإن المراد بعض القرآن وهى آياته ؛ لأن القارئ لا يقرأ كل القرآن ، ولكن يقرأ بعضه ، وعليه فإن لفظ قرآن مشترك لفظى .(٣)

٤ - تاريخ ظهور علوم القرآن وتدوينها :

قسم الشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى فى « مناهل العرفان » تاريخ ظهور علوم القرآن وتدوينها إلى ثلاثة عهود :

١ - عهد ما قبل التدوين . ٢ - عهد التمهيد للتدوين .

٣ - عهد التدوين .(٤)

---

(١) سورة يوسف آية ٢ .
(٢) سورة الأعراف آية ٢٠٤ .
(٣) انظر مناهل العرفان ١/٢٢ .
(٤) انظر مناهل العرفان ١/٢٨ - ٣١ بتصرف .

العهد الأول : عهد ما قبل التدوين :

يبدأ هذا العهد من بعثة الرسول – صلى الله عليه وسلم – إلى خلافة عثمان – رضى الله عنه – .

لقد كان · لهذا العهد طابع خاص يميزه عن العهدين التاليين ، حيث كان القرآن الكريم ينزل على رسول الله صلى الله عليه وسلم – فيعلمه أصحابه بعد أن ينفصل عنه الوحى ويأمر كتاب الوحى بكتابته ، وكان بعض أصحابه يكتبه لنفسه خاصة ، وهذا يدل على اهتمامهم البالغ بكتاب الله تعالى ، وكانوا إذا تعلموا عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، ونظراً لأن الصحابة كانوا عربا خلصا فإنهم كانوا يعرفون معانى القرآن ، ولقد كانوا يعرفون أسباب النزول ، وما نزل بمكة ، وما نزل بالمدينة ، والناسخ والمنسوخ وغير ذلك مما يتصل بالقرآن الكريم من معارف وعلوم ؛ لأنهم كانوا يعايشون هذه الأحوال ، وكانوا إذا أشكل عليهم فهم معنى آية رجعوا إلى الرسول – صلى الله عليه وسلم – فوضح لهم ما خفى عليهم ؛ لأن الله سبحانه وتعالى أوكل إليه هذا الأمر ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس ما نزل إليهم ولعلهم يتفكرون ﴾ (١) .

مثال ذلك ما ذكره الإمام البخارى والترمذى بسندهما عن علقمة عن عبد الله – رضى الله عنه – قال : لما نزلت هذه الآية ﴿ الذين ءامنوا ولم يلبسوا إيمانهم بظلم ﴾ شق ذلك على أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقالوا : أينا لم يلبس إيمانه بظلم ؟ فقال رسول الله

---

(١) سورة النحل اية ٤٤ .

– صلى الله عليه وسلم – : إنه ليس بذاك ألا تسمع إلى قول لقمان لابنه : ﴿ إن الشرك لظلم عظيم ﴾[1] .

ومما يجدر التنبيه إليه أن الصحابة – رضوان الله عليهم – لم يدونوا ما عرفوا مما يتصل بالقرآن الكريم فى عهد رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ولا فى عهد صاحبيه أبى بكر وعمر – رضى الله عنهما – لأسباب منها :

١ – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان المرجع الذى يرجعون إليه عندما يحتاجون إلى توضيح ما خفى عليهم ، كما ذكر الإمام البخارى والإمام الترمذى فى روايتهما السابقة .

٢ – ما امتاز به العرب من سيلان الذهن ، وقوة الحافظة ، وإدراك أوجه إعجاز القرآن الكريم ، وفهم معانيه ، فلم يكونوا فى حاجة إلى كتابة ذلك .

٣ – أن الصحابة – رضوان الله عليهم – كانوا أميين ، ولم تكن وسائل الكتابة ميسورة لديهم فى ذلك الوقت ، فكانت عقولهم هى سجلاتهم التى تستوعب كل ما يريدون حفظه ، وكانوا يعتمدون عليها .

٤ – أن الصحابة – رضوان الله عليهم – كانوا يحرصون كل الحرص على طاعة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وكان الرسول – صلى الله عليه وسلم – قد نهاهم عن كتابة شيء غير القرآن معه ،

---

(١) صحيح البخارى ١٧١/٣ ك التفسير باب تفسير سورة لقمان ، وسنن الترمذى ٢٦٢/٥ ك التفسير باب من سورة الأنعام وقال : حديث حسن صحيح .

مخافة أن يلتبس القرآن بغيره ، روى الإمام مسلم فى صحيحه عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال : « لا تكتبوا على غير القرآن ، ومن كتب على غير القرآن فليمحه » .[1]

لهذه الأسباب لم تدون علوم القرآن في هذا العهد على الرغم من أن الصحابة - رضوان الله عليهم - هم أول من أقام علوم القرآن ، ومضى الصحابة على ذلك بعد عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فى عهد أبى بكر وعمر - رضى الله عنهما - ، عكفوا ينشرون الإسلام ، ويعلمون الناس القرآن وعلومه ، والسنة وتعاليمها ، عن طريق المشافهة والتلقين .

العهد الثانى : عهد التمهيد للتدوين :

يبدأ هذا العهد بخلافة سيدنا عثمان - رضى الله عنه - حين اتسعت الفتوحات الإسلامية ، واختلط العرب بالعجم ، وكثر الاختلاف فى وجوه القراءات ، فأشاع الاختلاف في القراءات النزاع بين المسلمين، وكادت الفتنة أن تفرق جمع المسلمين ، لولا عناية الله بالإسلام وبالمسلمين ، فنبه حذيفة بن اليمان الخليفة عثمان - رضي الله عنهما - إلى ما رأى وسمع عندما كان فى غزوه ، وقال له : أدرك الأمة قبل أن يختلفوا اختلاف اليهود والنصارى ، ووفق الله عثمان - رضى الله عنه - فقام بعمل جليل وهو جمع القرآن الكريم ، وجمع المسلمين على مصحف إمام ، وحرق ما عداه من المصاحف ، وقضى على الفتنة التى كادت أن تظهر بسبب اختلاف المسلمين فى قراءة القرآن الكريم .

---

(١) صحيح مسلم ٨/ ٤٥٥ ك الزهد باب التثبت فى الحديث وحكم كتابة العلم .

ويعتبر عثمان – رضى الله عنه – أول من وضع الأساس لعلم رسم القرآن الكريم وهو الرسم العثمانى . « وجاء الإمام على – رضى الله عنه وكرم الله وجهه – بعد خلافة عثمان – رضي الله عنه – ووجد العجمة تزيد ؛ فخاف على لغة القرآن الكريم ، فأمر أبا الأسود الدؤلى أن يضع بعض القواعد لحماية القرآن الكريم ، فقام بنقط المصحف وشكله ». وبهذا العمل نجد أن عليا – رضي الله عنه وكرم الله وجهه – قد وضع الأساس لعلم إعراب القرآن »[1] .

وقد قيل : « إن أول من نقط المصحف وشكله أبو الأسود الدؤلى بأمر عبد الملك بن مروان ، وقيل الحسن البصرى ويحيى بن يعمر ، وقيل : نصر بن عاصم الليثى »[2] وقيل : « إن أول من نقط المصحف وشكله أبو الأسود الدؤلى بتوجيه من معاوية بن أبى سفيان »[3] وقد ذكر الدكتور صبحي الصالح هذا الخلاف نقلا عن الإمام الزركشى فى البرهان ، والسيوطى فى الإتقان ، وأبى عمرو الدانى فى المحكم ، ثم يقول : « أما أبو الأسود الدؤلي فقد اشتهر بأنه سبق إلى وضع مسائل فى العربية بأمر علي بن أبى طالب ، أما أنه انفرد وحده بوضع أصول نقط القرآن وشكله فليس منطقيا ولا معقولا ، فما ينهض بمثل هذا فرد بل أفراد ، ولا يبلغ تمامه جيل بل أجيال ، وحسب أبي الأسود أنه كان حلقة أولى فى سلسلة نقط القرآن وتجويد رسمه »[4] .

---

(١) انظر مناهل العرفان ١/ ٣٠ بتصرف .
(٢) الإتقان ٥٤٠ ومعجم الأدباء م٢ جـ١٢/ ٣٤ .
(٣) المدخل إلى علم التفسير ٢٣ .
(٤) مباحث فى علوم القرآن لصبحى الصالح ٩٢–٩٣ بتصرف .

واستمر الصحابة يتناقلون فيما بينهم معانى القرآن الكريم، كل حسب مامنحه الله من فهم آيات القرآن الكريم، وملازمته رسـول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وعن الصحابة أخذ التابعون وقاموا بدور كبير في تفسير القرآن الكريم ، وبيان علومه ، ومن هؤلاء : سعيد بن جبير ، ومجاهد ، وعكرمة مولى ابن عباس ، وطاوس بن كيسان ، وعطاء بن أبي رباح وكانوا بمكة، وزيد بن أسلم ، وأبو العالية ، ومحمد بن كعب القرظي، وهؤلاء بالمدينة ، وعلقمة بن قيس ، والحسن البصرى، وقتادة ، والشعبى ، وغيرهم وهؤلاء بالعراق [1]. وجاء تابعو التابعين ومنهم : مالك بن أنس، وعبد الرحمن بن زيد بن أسلم، ويعتبر هؤلاء جميعا هم واضعو الأساس لعلم التفسير، وعلم أسباب النزول ، وعلم الناسخ والمنسوخ، وعلم غريب القرآن.

العهد الثالث : عهد التدوين لعلوم القرآن :

بدأ هذا العهد فى القرن الثانى الهجرى : حين اتجهت همم العلماء فى الكتابة فى التفسير ؛ لأنه أساس العلوم القرآنية ، حيث يتعرض لها فى كثير من المناسبات وذلك عند شرح معانى الآيات . ولقد جمع بعض العلماء ما روى من تفسير القرآن الكريم عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أو عن الصحابة ، أو عن التابعين .

واشتهر منهم : يزيد بن هارون السلمى المتوفى سنة ١١٧ هجرية ، وشعبة بن الحجاج المتوفى سنة ١٦٠ هجرية ؛ ووكيع بن الجراح المتوفى سنة ١٩٧ هجرية ، وسفيان بن عيينة المتوفى سنة ١٩٨ هجرية، وعبد الرزاق بن همام المتوفى سنة ٢١١ هجرية .

---

(١) التفسير والمفسرون للدكتور الذهبى ١/١٠٤ ، ١١٦ ، ١٢٠ بتصرف .

وهؤلاء جميعا كانوا من أئمة الحديث ، فكان جمعهم للتفسير جمعا لباب من أبوابه ، وتلاهم الإمام ابن جرير الطبرى المتوفى سنة ٣١٠هـ فوضع تفسيرا متكاملا للقرآن الكريم [١] . وبقيت العناية كاملة بالتفسير حتى وقتنا الحالي حيث ألف العلماء التفسير بالمأثور ، والتفسير بالرأى ، والتفسير الكامل للقرآن الكريم ، والتفسير لجزء ، والتفسير لسورة ، والتفسير لآية ، والتفسير الموضوعى .

أما بالنسبة لعلوم القرآن فقد بدأ التأليف فيها مستقلة فى القرن الثالث الهجرى . حيث :

- ألف على بن المدينى شيخ البخارى المتوفى سنة ٢٣٤هـ فى أسباب النزول .
- وألف أبو عبيد القاسم بن سلام المتوفى سنة ٢٢٤ هـ كتابيه تأويل مشكل القرآن ، وتفسير غريب القرآن .

* وفى القرن الرابع الهجرى :

- ألف محمد بن خلف بن المرزباني المتوفى سنة ٣٠٩هـ الحاوى فى علوم القرآن .
- وألف أبو بكر محمد بن القاسم الأنبارى المتوفى سنة ٣٢٨هـ فى علوم القرآن .
- وألف أبو بكر السجستانى المتوفى سنة ٣٣٠هـ فى غريب القرآن .

(١) مباحث فى علوم القرآن لمناع القطان ١٢ .

* وفى القرن الخامس الهجرى :

- ألف أبو بكر الباقلانى فى إعجاز القرآن ، وألف على بن إبراهيم بن سعيد الحوفى المتوفى سنة ٤٣٠هـ فى إعراب القرآن .

- وألف الماوردى المتوفى سنة ٤٥٠هـ فى أمثال القرآن .

* وفى القرن السادس الهجرى :

- ألف ابن الجوزى المتوفى سنة ٥٩٧هـ كتابين : فنون الأفنان فى علوم القرآن و« المجتبى فى علوم تتعلق بالقرآن » .

- وألف أبو القاسم عبد الرحمن المعروف بالسهيلى : فى مبهمات القرآن.

* وفى القرن السابع الهجرى :

- كتب العز بن عبد السلام المتوفى سنة ٦٦٠هـ فى مجاز القرآن .

- وألف علم الدين السخاوى المتوفى سنة ٦٤١هـ كتابا سماه « جمال القراء » .

- وألف أبو شامة المتوفى سنة ٦٦٥ كتاباً أسماه « المرشد الوجيز فيما يتعلق بالقرآن العزيز » .

* وفى القرن الثامن الهجرى :

- كتب بدر الدين الزركشى المتوفى سنة ٧٩٤هـ كتابه « البرهان فى علوم القرآن » .

* وفى القرن التاسع الهجرى :

- ألف محمد بن سليمان الكافيجى المتوفى سنة ٨٧٣هـ كتابا يقول عنه الإمام السيوطى : « سمعت شيخنا أبا عبد الله محيى الدين الكافيجى يقول : قد دونت فى علوم التفسير كتابا لم أسبق إليه ، فكتبته عنه فإذا هو صغير الحجم جدا ، وحاصل ما فيه بابان وخاتمة ، فلم يشف لى ذلك غليلا ، ولم يهدنى إلى المقصود سبيلا » .[1]

- كما ألف جلال الدين البلقينى المتوفى سنة ٨٢٤هـ كتابه « مواقع العلوم من مواقع النجوم » .

- وألف الحافظ جلال الدين السيوطى المتوفى سنة ٩١١ هـ كتابيه «التحبير فى علوم التفسير» و« الإتقان فى علوم القرآن » .

يقول الشيخ الزرقانى : « وكأن نهاية السيوطى كانت نهاية لنهضة التأليف فى علوم القرآن ، فلم نر من سار فى هذا المضمار مثله بعده كما لم نر من بزّه فيه قبله » .[2]

* علوم القرآن فى القرن الأخير :

لم يكن نصيب علوم القرآن من التأليف في القرن الأخير أقل من العلوم الأخرى ، فقد أبدع الكتاب فى تأليف كتب فى علوم القرآن ، عالجت بعض الموضوعات الخاصة بعلوم القرآن ، مثل : « إعجاز القرآن » لمصطفى صادق الرافعى ، و« التصوير الفنى فى القرآن »

---

(١) الإتقان فى علوم القرآن ٣ بتصرف .
(٢) مناهل العرفان ١/ ٣٧ .

للشيخ سيد قطب ، و، ترجمة القرآن ، للشيخ المراغى ، و، التبيان فى علوم القرآن ، للشيخ طاهر الجزائرى ، أما كتاب ، مناهل العرفان فى علوم القرآن ، للشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى فإنه كتاب جامع لكثير من موضوعات علوم القرآن ، وتلا هؤلاء علماء أجلاء ، وأساتذة فضلاء ، كل منهم يسهم بمجهود كبير لخدمة ما يتصل بكتاب الله تعالى ، ويضيف إلى المكتبة الإسلامية ما يدل على اهتمامهم الكبير بالقرآن وعلومه فجزاهم الله عن الإسلام ، وأهله وكتاب الله تعالى خير الجزاء .

٥ - تعريف الحديث

بعد تعريف القرآن الكريم ينبغى أن أعرف الحديث لنتمكن من التفريق بينهما .

أ - تعريف الحديث : الحديث فى اللغة : ما كان ضد القديم . ويطلق على كل كلام يتحدث به وينقل ، ويبلغ الإنسان من جهة السمع أو الوحى فى يقظته أو منامه ، قال تعالى : ﴿ وإذا أسر النبى إلى بعض أزواجه حديثا ﴾ [التحريم : ٣] وقال : ﴿ فليأتوا بحديث مثله ﴾ [الطور : ٢٤] وقال : ﴿ ومن أصدق من الله حديثا ﴾ [النساء : ١٧] فسمى كتابه حديثا على الأصل اللغوى . وقال تبارك وتعالى : ﴿ وعلمتنى من تأويل الأحاديث ﴾ [يوسف : ١٠١] أى ما يتحدث به الإنسان فى نومه ، .(١)

وفى الإصطلاح : هو ما أضيف إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من قول ، أو فعل ، أو تقرير ، أو صفة من صفاته .

فالقول هو : أحاديثه التى قالها فى أغراض شتى ، أما أفعاله فهى : ما نقله إلينا أصحابه مثل وضوئه ، وأدائه الصلوات الخمس ، وغير ذلك من العبادات والأفعال التى فعلها - صلى الله عليه وسلم - ونقلت إلينا .

وأما تقريره فهو : ما أقره الرسول - صلى الله عليه وسلم - مما صدر عن بعض أصحابه من أقوال أو أفعال . والإقرار نوعان :

١ - موافقته - صلى الله عليه وسلم - للفعل أو القول وإظهار استحسانه . ومن ذلك ما رواه أبو داود فى سننه بسنده عن أبى سعيد الخدرى - رضى الله عنه - قال : « خرج رجلان فى سفر ، فحضرت

---

(١) انظر مفردات الراغب ١١٠ بتصرف .

الصلاة وليس معهما ماء ، فتيمما صعيدا طيبا ، فصليا ، ثم وجدا الماء فى الوقت ، فأعاد أحدهما الصلاة والوضوء ، ولم يعد الآخر ، ثم أتيا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فذكرا له ذلك ، فقال للذى لم يعد : « أصبت السنة ، وأجزأتك صلاتك ، وقال للذى توضأ وأعاد : « لك الأجر مرتين » .[1]

٢ – سكوته – صلى الله عليه وسلم – وعدم إنكاره لما يراه أو يسمعه ، مثال ذلك سكوته – صلى الله عليه وسلم – للعب الحبشة بالحراب فى المسجد ، وعدم إنكاره عليهم فعلهم ،[2] فهذا من إقراره – صلى الله عليه وسلم – بسكوته .

وأما صفته – صلى الله عليه وسلم – فما روى صحابته – رضى الله عنهم – من صفاته ، من أنه كان دائم البشر ، سهل الخلق ، لين الجانب » .

ما سبق هو تعريف الحديث النبوى الشريف .

ب – أما الحديث القدسى فهو :

ما يضيفه النبى – صلى الله عليه وسلم – إلى الله تعالى ، أى يرويه النبى – صلى الله عليه وسلم – على أنه من كلام الله تعالى ، لكن لفظه من عند النبى – صلى الله عليه وسلم – .

وتكون صيغة روايته أن يقول راوى الحديث : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيما يرويه عن رب العزة ، أو فيما يرويه

---

(١) سنن أبى داود ١/٩١ – ٩٢ ك الطهارة باب فى المتيمم يجد الماء بعدما يصلى فى الوقت .

(٢) انظر صحيح مسلم بشرح النووي م٣/٤١٤ك الصلاة ، باب الرخصة فى اللعب الذى لا معصية فيه .

عن ربـه ، أو يقول : قـال رسـول الله – صلى الله عليه وسـلم – : قال الله عز وجل .

جـ – الفرق بين القرآن الكريم والحديث القدسى :

بعـد تعـريـف كل من القـرآن الكريم والحـديث القـدسى يمكن أن نستخلص أهم الفروق الآتية :

١ – أن القـرآن الكريم مـعجـز ، تحدى الله به العـرب – على الرغم من فصاحـتهم – فعجزوا عن معارضته أو الإتيان بمثل أقصر سورة منه، وهو مـعجـزة الإسلام الخـالدة إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

أما الحديث القدسى فإنه لم يقع به التحدى والإعجاز .

٢ – أن القـرآن الكريم لا تجـوز نسبـتـه إلا إلى الله تعالى ، أمـا الحـديث القدسى فإنه يروى مضافا إلى الله تعالى ، وقد يضاف إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيـقـال : قـال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيما يرويه عن ربه – عز وجل – .

٣ – أن القــرآن الكريم لفظه ومـعناه من عند الله – عـز وجل – أمـا الحديث القدسى فمعناه من عند الله تبارك وتعالى ، ولفظه من عند رسول الله – صلى الله عليه وسلم – على الصحيح .

٤ – أن القرآن الكريم لا تجوز قراءته بمعناه ، ولا أن تبـدل كلمـة منه مكان أخرى ، أما الحديث القدسى فتجوز روايته بالمعنى .

٥ – أن القرآن الكريم جميعه منقول إلينا بالتواتر – أى قطعى الثبوت – أما الأحاديث القدسية فمنها الصحيح والحسن والضعيف أى منها ما هو قطعى الثبوت ، ومنها ما هو ظنى الثبوت .

٦ – أن القرآن الكريم متعبد بتلاوته ، ومعنى ذلك أن تلاوته ركن من أركان الصلاة لا تصح الصلاة إلا به ، وأن تلاوته عبادة يثاب المؤمن على قراءتها ، له بكل حرف عشر حسنات ، كما رواه الإمام الترمذى بسنده عن ابن مسعود قال : سمعت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول : « من قرأ حرفا من كتاب الله فله به حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول : آلم حرف ، ولكن ألف حرف ، ولام حرف ، وميم حرف » .[1]

أما الحديث القدسى فإنه لا يجزئ في الصلاة ، ولا ينال صاحبه الثواب الذى ذكره رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ثواباً لقراءة القرآن .

٧ – أن القرآن الكريم يكفر جاحده ؛ لأنه أنكر أصل الشريعة ، أما جاحد غير المتواتر من الحديث القدسى فإنه لا يكفر ؛ لأنه ظنى الثبوت.

٨ – أن القرآن الكريم تعهده الله بالحفظ ، وعدم التحريف ، والضياع فقال : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ [الحجر : ٩] أما الحديث القدسى فلم يتعهده الله بالحفظ أو عدم التحريف .

٩ – أن القرآن الكريم لا يجوز مس المحدث له ، كما لا تجوز قراءة الجنب له عند جمهور الفقهاء ، أما الحديث القدسى فإنه لا يتناوله هذا الحكم .

١٠ – أن الجزء من القرآن الكريم يسمى آية أو سورة ، ولا يسمى بعض الحديث القدسى آية ولا سورة باتفاق الجميع .

---

(١) سنن الترمذى ٥/١٧٥ – ١٧٦ ك فضائل القرآن باب ١٦ قال الترمذى : حديث حسن صحيح غريب .

المبحث الثاني
نزول القرآن وما يتعلق به

أولا : نـزول القـرآن

١ - معنى نزول القرآن :

النزول لغة : مصدر بمعنى الحلول ، وهى : مصدر نزل ينزل إذا حل فى مكان ، ومنه قولهم : « نزل الأمير المدينة » .

ويطلق أيضـا على انحطاط من علو ، يقـال : «نزل عن دابتـه » ، ونزل فى مكان كذا إذا حط رحله فيه .[1]

إذا دخلت الهمزة على الفعل « نزل » يكون معناه : تحريك الشىء من علو إلى سفل ، ومنه قوله تعالى : ﴿ أنزل من السماء ماء ﴾ [2] ، ويكون معناه : إحلال الغير فى مكان وإيواؤه به ومنه قوله تعالى : ﴿ وقل رب أنزلنى منزلا مباركا وأنت خير المنزلين ﴾ .[3]

والمتأمل فى آيات القرآن الكريم يرى أنه قد جاء فيها الفعل نزل مصاحبا نزول القرآن الكريم ، مرة بلفظ نزل ومنه قوله تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين ﴾ [4] . ومـرة بلفظ أنزل ، ومنه قـوله تعـالى : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة مـبـاركـة إنا كنا منذرين ﴾ [5] . ومــرة بلفظ نـزّل بالتضعيف ، ومنه قوله تعالى ﴿ إنا نحن نزلنا عليك القرآن تنزيلا ﴾ [6] .

---

(١) القاموس المحيط ٥٧/٤ ومفردات الراغب ٤٨٨ .
(٢) سورة الرعد آية ١٧ .
(٣) قاموس القرآن ٤٥٤، والآية رقم ٢٩ من سورة المؤمنين.
(٤) سورة الشعراء آية ١٩٣ .
(٥) سورة الدخان آية ٣ .
(٦) سورة الإنسان آية ٢٣ .

وبعد أن عرفنا الإطلاقات اللغوية لمعنى نزل نجد أنها لا يليق أن يراد بها نزول القرآن الكريم من الله تعالى ، أو إنزال الله للقرآن . ولكن يليق به المعنى المجازى وهو : الإعلام به .

يقول الشيخ الزرقانى: « ولا ريب أن كلا هذين المعنيين – أى الحلول فى مكان ، والانحطاط من علو – لا يليق إرادته هنا فى إنزال الله القرآن ، ولا فى نزول القرآن من الله تعالى ؛ لما يلزم هذين المعنيين من المكانية والجسمية ، إذن فنحن بحاجة إلى التجوز ، وليكن المعنى المجازى لإنزال القرآن هو : الإعلام به ، والعلاقة بين المعنى الحقيقى والمعنى المجازى هى اللزوم ؛ لأن إنزال شىء إلى شىء يستلزم إعلام من أنزل إليه ذلك الشئ به إن كان عاقلا ، ويستلزم إعلام من يطلع عليه من الخلق به مطلقا » .[1]

٢ – سر اختيار التعبير بمادة نزل وما تصرف منها :

إن اختيار التعبير بمادة الإنزال وما تصرف منها ، أو التقى معها ينوه بشرف المنزّل سبحانه وشرف ذلك الكتاب وشرف من أنزل عليه ؛ لأن مادة نزل تشير إلى العلو .[2]

٣ – إنزال القرآن الكريم :

استطاع العلماء بعد البحث أن يتوصلوا من خلال فهمهم للآيات التى تتحدث عن نزول القرآن الكريم إلى تنزلين :

أ – إنزاله جملة واحدة من اللوح المحفوظ إلى بيت العزة فى السماء الدنيا .

ب – إنزاله منجما على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من بدء الوحى حتى آخر حياة النبى – صلى الله عليه وسلم .

(١) مناهل العرفان ٤١/١ بتصرف .
(٢) المصدر السابق ٤٢/١ .

أ - إنزال القرآن الكريم جملة واحدة إلى السماء :

يقول الله تعالى ﴿ شهر رمضان الذى أنزل فيه القرآن ﴾ [1] ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾ [2] ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ إنا أنزلناه في ليلة مباركة ﴾ [3] فالآية الأولى تبين وقت نزوله وهو شهر رمضان والثانية تبين أنه أنزل فى ليلة القدر والثالثة تبين أنه أنزل فى ليلة مباركة ، ولا تعارض بين الوصفين ، فهى ليلة ذات قدر مباركة ، وهذا الإنزال كان جملة واحدة إلى سماء الدنيا ، أما ما يشير إلى ذلك من الأحاديث فإنها مروية عن ابن عباس رواها الحاكم وغيره وصححها ومنها :

١ - روى الحاكم بسنده عن عكرمة عن ابن عباس قال : « أنزل القرآن جملة واحدة إلى سماء الدنيا في ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك فى عشرين سنة ، ثم قرأ : ﴿ ولا يأتونك بمثل إلا جئناك بالحق وأحسن تفسيرا ﴾ الفرقان ٣٣ و﴿ قرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث ونزلناه تنزيلا ﴾ الإسراء ١٠٦ وقال : حديث صحيح على شرطهما ولم يخرجاه.[4]

٢ - وروى أيضا بسنده عن سعيد بن جبير عن ابن عباس فى قوله : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾ قال : « أنزل الله القرآن جملة واحدة فى ليلة القدر إلى السماء الدنيا ، وكان بموقع النجوم ، وكان الله

---

(١) سورة البقرة آية ١٨٥ .
(٢) سورة القدر آية ١ .
(٣) سورة الدخان آية ٣ .
(٤) المستدرك للحاكم ٢/٢٢٢ .

ينزله على رسوله – صلى الله عليه وسلم – بعضه فى إثر بعض ، قال : ﴿ وقالوا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ﴾ . قال : هذا حديث صحيح على شرطهما ولم يخرجاه .[1]

٣ – وروى بسنده أيضا عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال : « فصل القرآن من الذكر فوضع فى بيت العزة فى السماء الدنيا ، فجعل جبريل عليه السلام – ينزله على النبى صلى الله عليه وسلم – ويرتله ترتيلا » قال : حديث صحيح الإسناد ولم يخرجاه .[2]

فهذه الأحاديث صحيحة ، وهى موقوفة على ابن عباس ، لها حكم المرفوع إلى النبى – صلى الله عليه وسلم – ؛ لأنها قول صحابى ، وليس مما لا مجال للرأى فيه ، ولم يعرف ابن عباس بالأخذ عن أهل الكتاب فثبت الاحتجاج بها .

ويقول الشيخ الزرقانى : « ولا ريب أن نزول القرآن إلى بيت العزة من أنباء الغيب التى لا تعرف إلا من المعصوم ، وابن عباس لم يعرف بالأخذ عن الإسرائيليات ، فثبت الاحتجاج بها » .[3]

ويقول الدكتور عبد المنعم النمر : « والملاحظ فى هذه الأحاديث أن مصدرها واحد هو ابن عباس ، ولكن من المعروف لدي علماء الحديث أن مثل هذا الخبر – وهو نزول القرآن من اللوح المحفوظ إلى السماء

---

(١) المستدرك للحاكم ٢٢٢/٢ .
(٢) المصدر السابق ٢٢٣/٢ .
(٣) مناهل العرفان ٤٥/١ .

الدنيا – من الأمور الغيبية التى لا يتجرأ صحابى جليل على التحدث عن الأمور الغيبية حسب إمداد الله وإخباره إياه ». [1]

وهذا القول محل خلاف بين العلماء على أقوال ثلاثة ذكرها الإمام الزركشى فى البرهان فقال : « أحدها : أنه نزل إلى سماء الدنيا ليلة القدر جملة واحدة ، ثم نزل بعد ذلك منجما فى فترة النبوة .

القول الثانى : أنه نزل إلى سماء الدنيا فى عشرين ليلة قدر من عشرين سنة .

وقيل : فى ثلاث وعشرين ليلة قدر من ثلاث وعشرين سنة .

وقيل : فى خمس وعشرين ليلة قدر من خمس وعشرين سنة ، فى كل ليلة ما يقدر الله سبحانه إنزاله فى كل السنة ، ثم ينزل بعد ذلك منجما فى جميع السنة على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – .

القول الثالث : أنه ابتدئ إنزاله فى ليلة القدر ، ثم نزل بعد ذلك منجما فى أوقات مختلفة من سائر الأوقات . والقول الأول أشهر وأصح، وإليه ذهب الأكثرون ». [2]

حكمة إنزال القرآن جملة واحدة إلى السماء :

بين هذه الحكمة الإمام الزركشى فى البرهان ، والسيوطى فى الإتقان قالا : « السر فى إنزاله جملة إلى السماء : فيه تفخيم لأمره – أى تعظيم شأن القرآن – ، وأمر من نزل عليه – أى تعظيم شأن رسول الله

(١) علوم القرآن الكريم ٢٧–٢٨ بتصرف .
(٢) البرهان للزركشى ١/٢٨٩ – ٢٩٠ .

- صلى الله عليه وسلم - ، وذلك بإعلام سكان السموات السبع أن هذا آخر الكتب المنزلة على خاتم الرسل لأشرف الأمم ، ولولا أن الحكمة الإلهية اقتضت نزوله منجما بسبب الوقائع لأهبطه إلى الأرض جملة ، .[1]

ب - إنزال القرآن الكريم على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - :

١ - المراد من هذا التنزيل : إعلام الوحي النبي - صلى الله عليه وسلم - بآيات القرآن الكريم النازلة على قلبه - صلى الله عليه وسلم - . وهذا التنزيل كان بوساطة أمين الوحي جبريل - عليه السلام - يهبط به على قلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيعيه ويحفظه ، وكان يعجل بقراءته ويردده ، فنزل قول الله تعالى : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به ، إن علينا جمعه وقرآنه ﴾[القيامة : ١٦ ، ١٧][2] . وهذا التنزل يبدأ من وجود رسول الله - صلى الله عليه وسلم - في غار حراء حتى آخر حياة النبي - صلى الله عليه وسلم - مدة عشرين أو ثلاثة وعشرين عاما على أصح الأقوال . ولقد ذكر الشيخ الزرقاني أن للقرآن الكريم ثلاثة تنزلات ، فزاد على التنزلين السابقين نوعا جعله سابقا عليهما ، فقال :

« أ - التنزيل الأول إلى اللوح المحفوظ ، ودليله قوله سبحانه : ﴿ بل هو قرآن مجيد ، في لوح محفوظ ﴾[البروج : ٢١ ، ٢٢][3] وبالنظر إلى هذه

---

(١) البرهان ١/٢٩١ والإتقان ٥٦ .

(٢) لباب النقول في أسباب النزول /٤٣٦ هامش المصحف ،

(٣) مناهل العرفان ١/٤٣ .

الآية التى ذكرها الشيخ الزرقانى دليلا على ما أراد ، نجد أنها لا تشير إلى نزوله إلى اللوح المحفوظ ، ولكنها تشير إلى أن القرآن الكريم وجد فى اللوح المحفوظ قبل أن ينزل الله به جبريل إلى السماء الدنيا ، وليس لنا إلا التمسك بما دلت عليه الآيات فى نزوله إلى السماء الدنيا ، ونزوله على قلب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى قوله : ﴿ إنا أنزلناه فى ليلة القدر ﴾ [القدر : ١] وفى قوله تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين ، على قلبك لتكون من المنذرين ، بلسان عربى مبين ﴾ [الشعراء : ١٩٣ – ١٩٥] وهذا الوجود فى اللوح المحفوظ كان بطريقة ، وفى وقت لا يعلمهما إلا الله تعالى .

جـ – ما الذى كان ينزل به جبريل على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ؟

ذكر الإمام السيوطى فى الإتقان اختلاف الأقوال فيما نزل به جبريل على النبى – صلى الله عليه وسلم – هل كان اللفظ والمعنى أو أنه نزل بالمعانى ثم عبر عنها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بلفظه أو أن جبريل ألقى إليه المعنى ، وأنه عبر عنه بهذه الألفاظ بلغة العرب ؟ أى أن اللفظ من عند جبريل – عليه السلام – ؟

يقول : « وقال غيره فى المنزل على النبى – صلى الله عليه وسلم ثلاثة أقوال : أحدها : أنه اللفظ والمعنى ، وأن جبريل حفظ القرآن من اللوح المحفوظ ونزل به ، والثانى : أن جبريل إنما تمسك بالمعانى خاصة ، وأنه – صلى الله عليه وسلم – علم تلك المعانى ، وعبر عنها بلغة العرب ، وتمسك قائل هذا بظاهر قوله تعالى : ﴿ نزل به الروح الأمين على قلبك ﴾ .

والثالث : أن جبريل أُلقى إليه المعنى ، وأنه عبر بهذه الألفاظ بلغة العرب ، وأن أهل السماء يقرءونه بالعربية ، ثم إنه نزل به كذلك بعد ذلك » .[1]

يقول الشيخ الزرقانى – راداً على القولين الثانى والثالث – : « وقد أسفّ بعض الناس فزعم أن جبريل كان ينزل على النبى – صلى الله عليه وسلم – بمعانى القرآن ، والرسول يعبر عنها بلغة العرب ، وزعم آخرون أن اللفظ لجبريل ، وأن الله كان يوحى إليه المعنى فقط ، وكلاهما قول باطل أثيم ، مصادم لصريح الكتاب ، والسنة والإجماع ، ولا يساوى قيمة المداد الذى يكتب به ، وعقيدتى أنه مدسوس على المسلمين فى كتبهم ، وإلا فكيف يكون القرآن حينئذ معجزا ، واللفظ لمحمد أو لجبريل ؟ ثم كيف تصح نسبته إلى الله واللفظ ليس له ؟ مع أن الله يقول : ﴿ حتى يسمع كلام الله ﴾ [التوبة : ٦] .

والحق أنه ليس لجبريل فى هذا القرآن سوى حكايته للرسول ، وإيحائه إليه ، وليس للرسول – صلى الله عليه وسلم – فى هذا القرآن سوى وعيه وحفظه ، ثم حكايته وتبليغه ، ثم بيانه وتفسيره ، ثم تطبيقه وتنفيذه ، نقرأ فى القرآن نفسه أنه ليس من إنشاء جبريل ولا محمد ، يقول تعالى : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لى أن أبدله من تلقاء نفسى إن أتبع إلا ما يوحى إلى إنى أخاف إن عصيت ربى عذاب يوم عظيم ﴾ [يونس : ١٥] ويقول تعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه

---

(١) الإتقان للسيوطى / ٦٠ .

باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ، فما منكم من أحد عنه حاجزين ﴾ [الحاقة : ٤٤ : ٤٧] » .[1]

د - مدة نزول الوحي بالقرآن الكريم :

ابتدأ نزول القرآن الكريم ببعثة النبي - صلى الله عليه وسلم - ، وانتهى نزوله بقرب انتهاء حياته - صلى الله عليه وسلم - ، وقد اختلف العلماء في تقدير هذه المدة ، فقدرها بعضهم بعشرين سنة ، وقدرها بعضهم بثلاث وعشرين سنة ، وقدرها بعضهم بخمس وعشرين سنة ، ويرجع هذا الاختلاف إلى اختلافهم في تقدير المدة التي قضاها النبي - صلى الله عليه وسلم - في مكة قبل الهجرة ، فقال بعضهم : عشر سنين ، وقال بعضهم : ثلاث عشرة سنة ، وقال بعضهم : خمس عشرة سنة . أما المدة التي قضاها - صلى الله عليه وسلم - بالمدينة بعد الهجرة فقد اتفق الجميع على أنها كانت عشر سنوات ، وأصح الآراء : أن مدة نزول الوحي كانت ثلاثا وعشرين سنة منها : ثلاث عشرة بمكة قبل الهجرة ، وعشر سنوات بالمدينة بعد الهجرة .

هـ - نزول القرآن الكريم منجما :

أ - معنى التنجيم : يقول الراغب : « أراد بالنجم القرآن قدرا فقدرا »[2] ويقول ابن منظور : نجمت المال إذا أديته نجوما ، ويقول في قوله تعالى : ﴿ فلا أقسم بمواقع النجوم ﴾ عن نجوم القرآن ، « لأنه أنزل إلى سماء الدنيا جملة واحدة ، ثم أنزل على النبي - صلى الله عليه وسلم- آية آية » .[3]

---

(١) انظر مناهل العرفان ٤٩/١ بتصرف .

(٢) مفردات الراغب ٤٨٣ .

(٣) لسان العرب م١٢/ ٥٧٠ بتصرف .

يتضح مما سبق معنى نزول القرآن الكريم منجما : أي أنه نزل مفرقا حسب المقتضيات والأحوال والأسباب في مدة نزوله .

ويرتبط هذا التنجيم بالتنزيل الأخير على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، ففى الغالب أنه إذا حدثت حادثة أو سأل بعض الناس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تنزل الآية أو الايات ، لتبين الحكم فى هذه الحادثة كما حدث فى شأن أسرى بدر ، فقد أشار أبو بكر - رضى الله عنه - على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يقبل منهم الفداء ليتقوى به المسلمون ، ولوجود رابطة القرابة بين المهاجرين والأسرى ، ورجاء أن يهتدى بعضهم إلى الإسلام ، أما عمر - رضى الله عنه - فقد أشار على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يضرب أعناقهم ؛ لأنهم آذوه والمسلمين ، وأخرجوهم من ديارهم بغير حق إلا أن يقولوا : ربنا الله ، ونزل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على رأى أبى بكر ، فقد كان - صلى الله عليه وسلم - يمتاز بالرحمة الزائدة كما وصفه ربنا - عز وجل - حين قال : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ﴾ [التوبة : ١٢٨] لكن الآيات نزلت على قلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ [الأنفال : ٦٧ - ٦٨] .

أو تنزل لتجيب على سؤال للمسلم أو لغير المسلم ، فمن الأول قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر... ﴾ [البقرة : ٢١٩] وقوله : ﴿ويسألونك عن المحيض قل هو أذى﴾ [البقرة : ٢٢٢] ومن الثانى :

قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن ذى القرنين قل سأتلو عليكم منه ذكرا ﴾ [الكهف : ٨٣] وقوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾ [الإسراء : ٨٥] .

و - حكمة إنزال القرآن الكريم منجما :

روى الإمام السيوطى فى أسباب النزول عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال المشركون : إن كان محمد كما يزعم نبيا فلم يعذبه ربه ؟ ألا ينزل عليه القرآن جملة واحدة ، فينزل عليه الآية والآيتين ، فأنزل الله : ﴿ وقال الذين كفروا لولا نزل عليه القرآن جملة واحدة ﴾ [الفرقان : ٣٢] [1] فلقد تساءل المشركون : لماذا لم ينزل القرآن جملة واحدة ؟ ولو نزل جملة واحدة لقالوا لماذا لم ينزل منجما ؟ إنه العناد الذى سيطر على عقولهم وأفكارهم ، وإذا كانت سنة الله تعالى فى إنزال الكتب السابقة أن تنزل جملة واحدة ، فإن حكمته سبحانه اقتضت أن ينزل القرآن الكريم منجما ، لفوائد تعود على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وعلى المسلمين ؛ لذا رد الله عليهم : ﴿ كذلك لنثبت به فؤادك ورتلناه ترتيلا ﴾ . ويمكننا أن نستخلص حكمة نزول القرآن منجما فيما يأتى :

١ - تثبيت فؤاد النبى - صلى الله عليه وسلم - ، وتقوية قلبه ، فلقد هبت قريش واقفة فى وجه الدعوة التى جاء بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - خوفا على مكانتها بين القبائل ، فأذاقوه ألوان الإيذاء والاضطهاد ، فوضعوا عليه رحم شاة مذبوحة وهو يصلى ، وعفروا

---

(١) لباب النقول فى أسباب النزول ٣٠٠ .

رأسه – صلى الله عليه وسلم – بالتراب ، وخنقه عقبة بن أبي معيط بثوبه وهو يصلى ، ونهاه عدو الله أبو جهل أن يصلى عند الكعبة ، وتوعده إن رآه يصلى أن يطأ على عنقه ، فأنزل الله تعالى : ﴿ أرءيت الذي ينهى عبدا إذا صلى ، أرءيت إن كان على الهدى ، أو أمر بالتقوى، أرءيت إن كذب وتولى ، ألم يعلم بأن الله يرى ، كلا لئن لم ينته لنسفعا بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة ، فليدع ناديه ، سندع الزبانية ، كلا لا تطعه واسجد واقترب ﴾ [العلق : ٩ : ١٩] وهكذا كانت الآيات بردا وسلاما على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ثبتت قلبه، وخففت حزنه .

فكلما تجددت الشدائد تجدد نزول الوحي بشيء من القرآن يدحض باطل المشركين ، ويظهر عجزهم عن معارضة القرآن الكريم ، وكانت الآيات تنزل آمرة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يصبر كما صبر إخوانه من الرسل السابقين ، وتعده النصر على الأعداء ، قال تعالى : ﴿ فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل ﴾ [الأحقاف : ٣٥] ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ ولقد كذبت رسل من قبلك فصبروا على ما كذبوا وأوذوا حتى أتاهم نصرنا ولا مبدل لكلمات الله ولقد جاءك من نبأ المرسلين ﴾ [الأنعام : ٣٤] وتأمره بالصبر على ما يقولون ، وبتسبيح الله تعالى ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ فاصبر على ما يقولون وسبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها ومن آناء الليل فسبح وأطراف النهار لعلك ترضى ﴾ [طه : ١٣٠] .

كما أن الآيات كانت تنزل تحكي لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما حدث لإخوانه ، وما حل بهم من أقوامهم ، فيعلم أن هذا الإيذاء

دأب المكذبين المعاندين ، فتطمئن نفسه إلى نصر الله رب العالمين ، كما كانت تخفف عن الرسول حين تأمره بعدم حزنه على شرك المشركين ، وإعراضهم ، يقول تعالى : ﴿ فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا ﴾ [الكهف : ٦] ويقول : ﴿ ولا يحزنك الذين يسارعون فى الكفر إنهم لن يضروا الله شيئا ﴾ [آل عمران : ١٧٦] وتعده بالنصر والغلبة يقول تعالى : ﴿ وينصرك الله نصرا عزيزا ﴾ [الفتح : ٣] ويقول : ﴿ كتب الله لأغلبن أنا ورسلى إن الله قوى عزيز ﴾ [المجادلة : ٢١] فكان يجد – صلى الله عليه وسلم – فى نزول جبريل تخفيفا لآلامه ، وإحساساً بأنه محروس من الله وتحت عنايته ، وأن الصلة بينه وبين ربه مستمرة ، وأن الرعاية دائمة .

٢ – تيسير حفظ القرآن على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فلقد كان – صلى الله عليه وسلم – أميا لا يقرأ ولا يكتب ، وهذه واحدة تؤيد صدق رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى دعوته ؛ لأنه أتى بقرآن يفوق قدرة البشر – وهو أمى – قال تعالى : ﴿ وما كنت تتلوا من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون ﴾ [العنكبوت : ٤٨] وكون النبى – صلى الله عليه وسلم – أميا ، يقتضى أن يعتمد على ذاكرته فى حفظ القرآن الكريم ، وهذا يناسبه أن ينزل الله القرآن منجما ، ليسهل عليه حفظه ، وفهمه ، وتعليمه لأصحابه وبيانه ، وكان – صلى الله عليه وسلم – عندما ينزل عليه جبريل بالآيات يتعجل فى قراءتها حرصا عليها ، فنزل قول الله تعالى : ﴿ لا تحرك به لسانك لتعجل به إن علينا جمعه وقرآنه ، فإذا قرأناه فاتبع قرآنه ، ثم إن علينا بيانه ﴾ [القيامة: ١٦-١٩] ويقول سبحانه : ﴿ وقرآنا فرقناه لتقرأه على الناس على مكث

ونزلناه تنزيلا ﴾ [الإسراء : ١٠٦] يقول الإمام الفخر الرازي : « إنه – صلى الله عليه وسلم – لم يكن من أهل القراءة والكتابة ، فلو نزل عليه ذلك جملة واحدة كان لا يضبطه ، ولجاز عليه الغلط والسهو ، وإنما نزلت التوراة جملة لأنها مكتوبة يقرؤها موسى ، ثانيا : أن من كان الكتاب عنده فربما اعتمد على الكتاب ، وتساهل في الحفظ ، فالله تعالى ما أعطاه الكتاب دفعة واحدة ؛ ليكون حفظه له أكمل ، فيكون أبعد له عن المساهلة وقلة التحصيل » .[1]

٣ – تيسير حفظ القرآن على الأمة الإسلامية ، وتسهيل فهمه عليهم ، فقد كان العرب أمة أمية ، وكانت أدوات الكتابة غير ميسورة لديهم ؛ لذا كانوا يعتمدون على صدورهم في حفظه وفهمه ، فقيل : «صدورهم أناجيلهم » ، ولقد برعوا في الاعتماد على ذاكرتهم في الحفظ ، فحفظوا أشعارهم ، وأنسابهم ، وأيام حروبهم المهمة ، كما أن أدوات الكتابة كانت الحجارة الملساء ، والعظام العريضة ، والجريد ، والجلد ، وذلك يصعب حمله ، إذاً لا مناص من الاعتماد على الذاكرة في الحفظ ، وإن كانوا قد دونوا ما كان ينزل به جبريل فإنهم كانوا يهتمون بالحفظ ويعتمدون عليه ؛ لأن القليل منهم هم الذين يستطيعون الكتابة . ولو نزل القرآن دفعة واحدة ، لصعب عليهم كتابته ، ولكان أصعب منها حفظه ، كما أن للبشر طاقة وقدرة ، لو زاد ما يكلفون به عليها لعجزوا عن تحمله ، والله سبحانه لطيف بعباده ، رحيم بهم ، قال تعالى : ﴿ يريد الله بكم اليسر ولا يريد بكم العسر ﴾ [البقرة : ١٨٥]

---

(١) مفاتيح الغيب م١٢ جـ٢٤/ ٨٠ .

ويقول : ﴿ لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ﴾ [البقرة : ٢٨٦] ونحن فى عصرنا نجد أن التنجيم أسهل طريق للحفظ ، وكان الصحابة إذا حفظوا عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل ، أخرج ابن عساكر عن أبى عبد الرحمن السلمى قال : « حدثنا الذين كانوا يقرئوننا القرآن ، كعثمان بن عفان ، وعبد الله بن مسعود ، وغيرهما ، أنهم كانوا إذا تعلموا من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عشر آيات لم يجاوزوها حتى يتعلموا ما فيها من العلم والعمل . قالوا : فتعلمنا القرآن، والعلم ، والعمل جميعا »[1] وهكذا تيسر لهم حفظه وفهم معانيه .

٤ – تثبيت قلوب المؤمنين ، وتسليحهم بالصبر واليقين .

لقد لاقى أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ألوانا من الأذى والاضطهاد ، وما وقع لبلال وياسر وعمار وسمية زوج ياسر وغيرهم خير دليل على ذلك ، روى الواحدى فى أسباب النزول أن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : « نزل قوله تعالى : ﴿ من كفر بالله من بعد إيمانه ﴾ فى عمار بن ياسر ، وذلك أن المشركين أخذوه وأباه ياسرا ، وأمه سمية ، وصهيبا وبلالا ، وخبابا وسالما ، فأما سمية فإنها ربطت بين بعيرين ، ووجئ قلبها بحربة ، وقيل لها : إنك أسلمت من أجل الرجال ، فقتلت وقتل زوجها ياسر ، وهما أول قتيلين فى الإسلام ، وأما عمار فإنه أعطاهم ما أرادوا بلسانه مكرها ، فأخبر النبى – صلى الله عليه وسلم – بأن عمارا كفر ، فقال : كلا إن عمارا ملئ إيمانا من قرنه إلى قدمه ، واختلط الإيمان بلحمه ودمه ، فأتى عمار رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو يبكى ، فجعل رسول الله – صلى الله عليه

---

(١) هدى الفرقان ١٢٦/١ .

وسلم – يمسح عينيه ، وقال : إن عادوا لك فعد لهم بما قلت ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، .[1]

وفيها تثبيت لقلب عمار ، وإخوانه من الذين يعذبون وقد يلجئهم الأذى الشديد إلى أن يقولوا بأفواههم ما ليس فى قلوبهم من كفر ، ليخلصوا أنفسهم من التعذيب .

ويروى الإمام السيوطى فى أسباب النزول عن أبى بن كعب قال : لما قدم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأصحابه المدينة ، وآوتهم الأنصار ، رمتهم العرب عن قوس واحدة ، وكانوا لا يبيتون إلا بالسلاح، ولا يصبحون إلا فيه . فقالوا : ترون أنا نعيش حتى نبيت آمنين مطمئنين لا نخاف إلا الله ؟ فنزل قوله تعالى : ﴿ وعد الله الذين ءامنوا منكم وعملوا الصالحات ليستخلفنهم فى الأرض كما استخلف الذين من قبلهم وليمكن لهم دينهم الذى ارتضى لهم وليبدلنهم من بعد خوفهم أمنا ﴾[2] [النور : ٥٥] .

وهكذا كانت الآيات تنزل الحين بعد الحين ، تطمئنهم وتثبت قلوبهم ، وتدعوهم إلى تحمل ما ينزل بهم ، وتعدهم بنصر الله تعالى ، والتمكين لهم فى الأرض ، وفعلا تحقق لهم – بفضل الله – ما وعدهم به ، وصدق ربنا حيث يقول : ﴿ وكان حقا علينا نصر المؤمنين ﴾ [الروم : ٤٧] .

٥ – التدرج فى تشريع الشرائع رحمة من الله بالعباد ، حتى يتعودوا البعد عن الرذائل والتحلى بالفضائل بسهولة ويسر .

---

(١) أسباب النزول للواحدى ٢١٢ .

(٢) لباب النقول للسيوطى ٢٩٥ .

لقد نزلت الآيات أول الأمر ، تثبت أسس العقيدة وأصول الإيمان ، الإيمان بالله وملائكته وكتبه ورسله ، واليوم الآخر وما فيه ، وكانت تأمر بمحاسن الأخلاق ، وإستطاعت آيات القرآن أن تستأصل ما انتشر فى نفوسهم من أمراض اجتماعية بعد أن شرع لهم من فرائض الدين ما يجعل قلوبهم عامرة بالإيمان ، فتدرج فى تشريعها ، ففرض الصلاة قبل الهجرة ، ثم ثنى بالزكاة وبالصوم فى السنة الثانية للهجرة ، وختم بالحج فى السنة السادسة للهجرة .

أما ما اعتادوا من رذائل وعادات انتشرت بينهم ، فإنه كان يصعب عليهم أن يتركوها دفعة واحدة ، فكان التدرج في التشريع من مظاهر رحمة الله بعباده ، وسبيلا إلى أن يصل بهم إلى القمة الشامخة فى سهولة ويسر ، وهذا يناسبه أن ينزل القرآن منجما . روى الإمام البخارى بسنده عن عائشة - رضى الله عنها - أنها قالت : « إنما نزل أول ما نزل من القرآن سورة من المفصل ، فيها ذكر الجنة والنار ، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام نزل الحلال والحرام ، ولو نزل أول شيء: لا تشربوا الخمر لقالوا : لا ندع الخمر أبدا ، ولا تزنوا ، لقالوا : لا ندع الزنا » .[1]

وأوضح مثالا للتدرج فى التشريع فى تحريم الخمر:

أخرج عبد بن حميد عن عطاء قال : أول ما نزل من تحريم الخمر: ﴿ يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ﴾ [البقرة : ٢١٩] فقال بعض الناس : نشربها لمنافعها ،

---

(١) صحيح البخارى ٢٢٧/٣ ك فضائل القرآن باب أنزل القرآن على سبعة أحرف .

وقال آخرون : لا خير فى شئ فيه إثم ، ثم نزلت : ﴿ يا أيها الذين ءامنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾ [النساء : ٤٣] فقال بعض الناس : نشربها ونجلس في بيوتنا ، وقال آخرون : لا خير فى شئ يحول بيننا وبين الصلاة مع المسلمين ، فنزلت : ﴿ يأيها الذين ءامنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان فاجتنبوه لعلكم تفلحون ، إنما يريد الشيطان أن يوقع بينكم العداوة والبغضاء فى الخمر والميسر ويصدكم عن ذكر الله وعن الصلاة فهل أنتم منتهون ﴾ [1] [المائدة : ٩٠ – ٩١] فلما نزلت قالت الصحابة : « انتهينا ربنا ، انتهينا ربنا ، وأمر الرسول – صلى الله عليه وسلم – مناديه أى ينادى فى طرق المدينة : ألا إن الخمر قد حرمت ، فكسرت الدنان ، وأريقت الخمر حتى جرت فى سكك المدينة .

وهكذا تدرج الشرع فى تحريم الخمر ، فأخذ بأيديهم فى هدوء إلى ترك هذه العادة القبيحة . وهذا التدرج يعتبر دليلا على إعجاز الإسلام فى تربية الأمم ، وتهذيب الشعوب ، والرفق بهم ، وتعويدهم على ما يريد دون سأم .

٦ – إجابة السائلين على أسئلتهم التى كانوا يوجهونها لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – على فترات مختلفة ، ولو نزل القرآن جملة واحدة ما تحقق هذا الأمر . هذه الأسئلة التى سئلها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إما أن تكون من أعدائه ، والغرض منها التثبت من رسالته ، أو التعجيز ، وإما أن تكون من المؤمنين ، والغرض منها معرفة حكم من الأحكام الشرعية التى لم يكن حكمها معروفا لديهم .

---

(١) فقه السنة ٢٧١/٢ .

فمن الأول - وهو سؤال الأعداء - ما رواه الإمام البخارى بسنده عن عبد الله بن مسعود - رضى الله عنه - قال : بينا أنا مع النبى - صلى الله عليه وسلم - فى حرث وهو متكئ على عسيب إذ مر اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح فقال : ما رابكم إليه ؟ وقال بعضهم : لا يستقبلكم بشئ تكرهونه فقالوا : سلوه فسألوه عن الروح ، فأمسك النبى - صلى الله عليه وسلم - فلم يرد عليهم شيئا ، فعلمت أنه يوحى إليه . فقمت مقامى ، فلما نزل الوحى قال : ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربي وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ، .[1]

ومن الثانى - وهو سؤال المؤمنين - قوله تعالى : ﴿ يسئلونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما ويسئلونك ماذا ينفقون قل العفو ﴾ [البقرة : ٢١٩] .

وقوله تعالى : ﴿ ويسئلونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم والله يعلم المفسد من المصلح ولو شاء الله لأعنتكم إن الله عزيز حكيم ﴾ [البقرة : ٢٢٠] .

روى أبو داود بسنده عن ابن عباس قال : لما أنزل الله عز وجل : ﴿ ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن ﴾ و﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما ﴾ الآية . انطلق من كان عنده يتيم فعزل طعامه من طعامه ، وشرابه من شرابه ، فجعل يفضل من طعامه فيحبس له حتى يأكله أو يفسد ، فاشتد ذلك عليهم ، فذكروا ذلك لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأنزل الله عز وجل ﴿ ويسئلونك عن اليتامى قل إصلاح

(١) صحيح البخارى ٣/١٥١ - ١٥٢ ك التفسير باب سورة بنى إسرائيل .

لهم خير وإن تخالطوهم فإخوانكم ﴾ فخلطوا طعامهم بطعامه ، وشرابهم بشرابه ، .[1]

وقوله تعالى : ﴿ يسئلونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول ﴾ [الأنفال : ١] .

روى أبو داود بسنده عن ابن عباس قال : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يوم بدر : « من فعل كذا وكذا فله من النفل كذا وكذا ، قال : فتقدم الفتيان ، ولزم المشيخة الرايات فلم يبرحوها ، فلما فتح الله عليهم ، قال المشيخة : كنا ردءاً لكم ، لو انهزمتم لفئتم إلينا ، فلا تذهبوا بالمغنم ونبقى ، فأبى الفتيان وقالوا : جعله رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لنا ، فأنزل الله : ﴿ يسئلونك عن الأنفال قل الأنفال لله ﴾ إلى قوله : ﴿ كما أخرجك ربك من بيتك بالحق وإن فريقا من المؤمنين لكارهون ﴾ يقول : فكان ذلك خيرا لهم ، فكذلك أيضا فأطيعوني فإني أعلم بعاقبة هذا منكم ، [2] فكل هذه الأسئلة كانت على فترات فناسبها أن ينزل القرآن منجما ليجيب عليها ، ويوضح ما خفي منها .

٧ – مجاراة الأقضية والوقائع ، التي تقع في حينها ببيان حكم الله فيها .

معلوم أن الأقضية والوقائع لا تقع دفعة واحدة ، لكنها تكون متفرقة ، وهذه الأقضية وتلك الوقائع تحتاج إلى الفصل فيها كلما وقع منها شئ ، وكان ذلك على فترات مختلفة ، ولو نزل القرآن جملة ما أمكن ذلك .

---

(١) سنن أبي داود ١١٤/٣ ك الوصايا باب مخالطة اليتيم في الطعام .
(٢) المصدر السابق ٧٧/٣ ك الجهاد باب في النفل .

مثال ذلك ماوقع من أوس بن الصامت عندما قال لزوجته خولة بنت ثعلبة : أنت علىّ كظهر أمى ، وكان ذلك طلاقا فى الجاهلية ، فشكت إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حالها . فقال لها : « قد حرمت عليه ، فنزل قوله تعالى : ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ﴾ إلى قوله : ﴿ وللكافرين عذاب أليم ﴾ . روى الإمام ابن جرير بسنده عن عبد الله بن سلام قال : حدثتنى خويلة امرأة أوس بن الصامت قالت : كان بينى وبينه شئ – تعنى زوجها – فقال : أنت علىّ كظهر أمى ، ثم خرج إلى نادى قومه ثم رجع فراودنى عن نفسى ، فقالت : كلا والذى نفسى بيده حتى ينتهى أمرى وأمرك إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيقضى فىّ وفيك أمره ، وكان شيخا كبيرا رقيقا ، فغلبته بما تغلب به المرأة القوية الرجل الضعيف ، ثم خرجت إلى جارة لها فاستعارت ثيابها ، فأتت رسول الله – صلى الله عليه وسلم – حتى جلست بين يديه ، فذكرت له أمره ، فما برحت حتى أنزل الوحى على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ثم قالت : لا يقدر على ذلك ، قال : إنا سنعينه على ذلك بفرق من تمر ، قلت : وأنا أعينه بفرق آخر ، فأطعم ستين مسكينا » .[1]

ولقد حدث أن اتهم المنافقون السيدة عائشة – رضى الله عنها – فرموها بالزنا ، وشاع حديث الإفك بين الناس ، حتى اشتد الأمر عليها، وعلى أبيها الصديق وأمها أم رومان – رضى الله عنهم – واشتد الأمر

---

(١) جامع البيان م١٢ جـ٢٨/٥ .

على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، فنزلت الآيات فى سورة النور تبرئ ساحتها ، وتظهر للناس أنها الحصان الرزان الطاهرة ، نزل قوله تعالى : ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شرا لكم بل هو خير لكم ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ أولئك مبرءون مما يقولون لهم مغفرة ورزق كريم ﴾ [النور : ١١ : ٢٦] وهكذا اندمل الجرح واطمأنت النفس فلما نزلت هذه الآيات ، وقرأها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قالت لها أمها : قومى إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فاحمديه ، قالت : أنا لا أحمد إلا الله الذى برأنى من فوق سبع سموات . وغير هذين المثالين الكثير فى كتاب الله تعالى .

٨ – إرشاد المسلمين إلى الطريق الصحيح الذى يجب أن يسيروا فيه ، وتصحيح أغلاطهم .

نحن بشر والعصمة للأنبياء والرسل ، وقد يلم بالإنسان خطأ فى قول أو فعل ، فكان أصحاب رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إذا وقع منهم ذلك ، تنزل آيات القرآن الكريم تصحح أخطاءهم ، وتوجههم إلى الطريق الصحيح ، مثال ذلك ما ذكر فى سورة آل عمران بعد أن انتهت المعركة ، ولحقت المسلمين الهزيمة بسبب مخالفتهم أمر سول الله – صلى الله عليه وسلم – ، فنزلت الآيات من قوله تعالى : ﴿ وإذ غدوت من أهلك تبوئ المؤمنين مقاعد للقتال والله سميع عليم ﴾ [آل عمران : ١٢١] إلى قوله تعالى : ﴿ وإن تؤمنوا وتتقوا فلكم أجر عظيم ﴾ [آية ١٧٩] تصحح خطأهم الذى وقعوا فيه ، حين خالفوا أمر سول الله – صلى الله عليه وسلم – وترك الرماة أماكنهم ، وشغلهم جمع الغنائم ، فحين صدقوا فى جهادهم صدقهم الله وعده ، وحين تنازعوا فى الأمر واختلفوا ، غير الله

حالهم ، يقول الإمام البغوى : « وكان اختلافهم أن الرماة اختلفوا حين انهزم المشركون ، فقال بعضهم : انهزم القوم فما مقامنا ؟ وأقبلوا على الغنيمة ، وقال بعضهم : لا تجاوزوا أمر رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ، وثبت عبد الله بن جبير فى نفر يسير دون العشرة ، فلما رأى خالد بن الوليد وعكرمة بن أبى جهل ذلك حملوا على الرماة ، فقتلوا عبد الله بن جبير وأصحابه ، وأقبلوا على المسلمين وجاءت الريح فصارت دبورا بعدما كانت صبا ، وانقضت صفوف المسلمين ، واختلطوا فجعلوا يقتلون على غير شعار ، يضرب بعضهم بعضا ، ما يشعرون من الدهش ، ونادى إبليس أن محمدا قد قتل ، فكان ذلك سبب هزيمة المسلمين »[1] يقول الله تعالى : ﴿ ولقد صدقكم الله وعده إذ تحسونهم بإذنه حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ [آل عمران : ١٥٢] ونهاهم عن التشبه بالمنافقين فى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين ءامنوا لا تكونوا كالذين كفروا وقالوا لإخوانهم إذا ضربوا فى الأرض أو كانوا غزى لو كانوا عندنا ما ماتوا وما قتلوا ليجعل الله ذلك حسرة فى قلوبهم والله يحيى ويميت والله بما تعملون بصير ﴾ [آل عمران : ١٥٦] .

ومثال ذلك أيضا قوله تعالى : ﴿ ويوم حنين إذا أعجبتكم كثرتكم فلم تغن عنكم شيئا وضاقت عليكم الأرض بما رحبت ثم وليتم مدبرين ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ ثم يتوب الله من بعد ذلك على من يشاء

---

(١) معالم التنزيل ١/٥٥٨ – ٥٥٩ .

والله غفور رحيم ﴾ [التوبة : ٢٥ : ٢٧] يقول الإمام القرطبي : « قيل : كانوا إثنى عشر ألفا ، وقيل : كانوا أحد عشر ألفا وخمسمائة . وقيل : ستة عشر ألفا . فقال بعضهم : لن نغلب اليوم عن قلة ، فوكلوا إلى هذه الكلمة ، فكانت الهزيمة فى الإبتداء إلى أن تراجعوا ، فكان النصر للمسلمين ببركة سيد المرسلين – صلى الله عليه وسلم – فبين الله – عزوجل – فى هذه الآية أن الغلبة إنما تكون بنصر الله لا بالكثرة » .[1]
وهكذا صحح الله خطأهم حين ظن بعضهم أن الكثرة هى سبب الانتصار ، وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ كم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله والله مع الصابرين ﴾ [البقرة : ٢٤٩] . وغير ذلك أمثلة فى كتاب الله تعالى .

٩ – توجيه رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى ما يجب أن يفعله بعد أن يجتهد ويفعل خلاف الأولى .

النبى – صلى الله عليه وسلم – بشر ، لكنه معصوم من الخطأ ، وقد حدث أن فعل الرسول – صلى الله عليه وسلم – خلاف الأولى ، فنزلت الآيات توجهه إلى ما يجب عليه أن يفعله ، وسأذكر لذلك مثالين :

أما المثال الأول : فهو ما حدث عندما أسر المسلمون سبعين من المشركين فى غزوة بدر ولم يكن قد نزل شئ فى شأنهم ، فاستشار الرسول – صلى الله عليه وسلم – أصحابه ، ثم نزل على رأى أبى بكر – رضى الله عنه – وهو أن يطلق سراحهم مقابل فداء يتقوى به المؤمنون ، لكن الآيات نزلت تبين أنه كان من الأولى أن يكثر الرسول

---

(١) تفسير القرطبى ٩٦/٨ .

فيهم القتل ليذلهم ، ولا ينظر إلى عرض الدنيا يقول تعالى : ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ، لولا كتاب من الله سبق لمسكم فيما أخذتم عذاب عظيم ﴾ [الأنفال : ٦٧ -٦٨] .

أما المثال الثانى فقد ذكره الإمام السيوطى فى أسباب النزول ، والبخارى فى كتاب التفسير عن ابن عمر - رضى الله عنهما - قال : لما توفى عبد الله بن أبى جاء ابنه عبد الله بن عبد الله إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فأعطاه قميصه ، وأمره أن يكفنه فيه ، ثم قام يصلى عليه ، فأخذ عمر بن الخطاب بثوبه فقال : تصلى عليه وهو منافق ، وقد نهاك الله أن تستغفر لهم ؟ قال : إنما خيرنى الله أو أخبرنى فقال : ﴿ استغفر لهم أو لا تستغفر لهم إن تستغفر لهم سبعين مرة فلن يغفر الله لهم ﴾ فقال : سأزيده على سبعين ، قال : فصلى عليه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصلينا معه ، ثم أنزل الله عليه : ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾ [التوبة : ٨٤] [1] فلو نزل القرآن جملة ما عالج مثل ذلك .

١٠ - وجود الناسخ والمنسوخ فى القرآن الكريم ، وذلك يناسبه أن ينزل القرآن الكريم منجماً ؛ لأن شرط الناسخ أن يكون متأخرا عن المنسوخ فى النزول ، فلو نزلت الآيات دفعة واحدة ما تحقق ذلك ، يقول

---

(١) صحيح البخارى ١٣٧/٣ ك التفسير سورة براءة ، وأسباب النزول للسيوطى ٢١٣ - ٢١٤ .

الإمام الزركشي في البرهان : « ولأن بعضه منسوخ ، وبعضه ناسخ ، ولا يتأتى ذلك إلا فيما أنزل مفرقاً » .[1]

١١ - توجيه العقول إلى بلاغة القرآن الكريم ، وعظمته ، وأنه كلام الله تعالى . وذلك لأن القرآن الكريم عندما نقرؤه ، نحس بجودة سبكه ، وإحكام سرده ، وإتصال بعضه ببعض ، ويظهر فيه الإعجاز من أوله إلى آخره ، في حين أنه لم ينزل دفعة واحدة ، ويكون ذلك سببا في لفت أنظار الناس إليه ، فيتبينوا الحقيقة الواضحة وهي أن القرآن ليس من كلام البشر ، إنما هو من كلام رب البشر الذي ربط بين آياته ربطا قويا ، وكأنما هو نزل دفعة واحدة .

(١) البرهان للزركشي ٢٩٣/١ .

ثانيا : الوحى

هذا البحث لازم ؛ لأنه يرتبط بنزول القرآن الكريم فى التنزل الأخير على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقول الله تعالى ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ﴾ [الشورى : ٥٢] وكذلك لارتباطه بالرسل الذين سبقوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده وأوحينا إلى إبراهيم وإسماعيل وإسحق ويعقوب والأسباط وعيسى وأيوب ويونس وهارون وسليمان وءاتينا داود زبورا ﴾ [النساء : ١٦٣] .

١ – تعريفه :

الوحى : مصدر وَحَى ، أو اسم مصدر من أوحى ؛ لأن المصدر منه إيحاء ، وقد تطلق كلمة الوحى ويراد بها اسم المفعول أى الموحى .

والوحى معناه : الإشارة والكتابة ، والرسالة ، والكلام الخفى ، وكل ما ألقيته إلى غيرك .

وقد وردت فى القرآن الكريم كلمة أوحى ويوحى بمعان مختلفة :

١ – بمعنى الإلهام وهو قسمان : أ – الإلهام الغريزى ، وهذا فى قوله تعالى : ﴿ وأوحينا إلى أم موسى أن أرضعيه فإذا خفت عليه فألقيه فى اليم ولا تخافى ولا تحزنى إنا رادوه إليك وجاعلوه من المرسلين ﴾ [القصص : ٧] .

يقول الفخرالرازى: « المراد عزيمة جازمة وقعت فى قلبها دفعة واحدة فكل من تفكر فيما وقع إليه ظهر له الرأى الذى هو أقرب إلى الخلاص ، ويقال لذلك الخاطر إنه وحى ، أو المراد منه الإلهام ، لكنا متى بحثنا عن الإلهام كان معناه خطور رأى بالبال وغلبة على القلب فيصير هذا هو الوجه السابق .

وقيل : المراد أنها رأت رؤيا ، وكان تأويلها وضع موسى - عليه السلام - فى التابوت وقذفه فى البحر ، وأن الله تعالى يرده إليها ، [1] وهذا الرأى الذى وصلت إليه تأويلا للرؤيا هو الإلهام .

ب - الإلهام الفطرى : وذلك كما فى قوله تعالى : ﴿ وأوحى ربك إلى النحل أن اتخذى من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يعرشون ﴾ [النحل : ٦٨] .

يقول الإمام الخازن معنى أوحى : « أنه تعالى سخرها لما خلقها له، وألهمها رشدها ، وقدر فى أنفسها هذه الأعمال العجيبة التى يعجز عنها العقلاء من البشر ، ولما امتاز هذا الحيوان الضعيف بهذه الخواص العجيبة ، الدالة على مزيد الذكاء والفطنة دل ذلك على الإلهام الإلهى ، فكان ذلك شبيها بالوحى ، [2] وتصديق هذا من كتاب الله تعالى : ﴿ الذى خلق فسوى ، والذى قدر فهدى ﴾ [الأعلى ٢ ، ٣] وقوله تعالى : ﴿ قال ربنا الذى أعطى كل شئ خلقه ثم هدى ﴾ [طه : ٥٠] .

٢ - بمعنى الإيماء ، وهو الإشارة الخفية ، يقول الله تعالى : ﴿ قال

---

(١) مفاتيح الغيب م١١ جـ٢٢/٥٢-٥٣ .
(٢) تفسير الخازن ٣٢/٤ بتصرف .

رب اجعل لي آية قال ءايتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا ، فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشيا ﴾ [مريم : ١٠-١١] لما بشر الله تعالى زكريا – عليه السلام – بولد هو – يحيى – عليه السلام – وكانت امرأته عاقراً ، وقد بلغ زكريا حالة الكبر ونحول الجلد ، وطلب من الله علامة على حملها ، أخبره الله أن علامة ذلك أنه لا يقدر أن يتكلم مع الناس ثلاث ليال إلا بإشارة إليهم ، فخرج إليهم وكانوا ينتظرونه بكرة وعشيا فيأمرهم بالصلاة ، فلما خرج وجدوه متغيرا لونه ، فأنكروه فقالوا : مالك ؟ فأشار إليهم أن صلوا لله بكرة وعشيا .

٣ – بمعنى أسر بعضهم إلى بعض ووسوس . يقول الله تعالى : ﴿ وكذلك جعلنا لكل نبى عدوا شياطين الإنس والجن يوحى بعضهم إلى بعض زخرف القول غرورا ولو شاء ربك ما فعلوه فذرهم وما يفترون ﴾ [الأنعام : ١١٢] وقوله : ﴿وإن الشياطين ليوحون إلى أوليائهم ليجادلوكم ﴾ [الأنعام : ١٢١] .

يقول الإمام الشوكانى فى معنى (يوحى بعضهم إلى بعض) « يوسوس بعضهم لبعض ، وسمى وحيا لأنه إنما يكون خفية بينهم » [1] ويقول فى معنى الآية الثانية : « أى يوسوسون لهم بالوساوس المخالفة للحق ، المباينة للصواب ، قاصدين بذلك أن يجادلكم هؤلاء الأولياء بما يوسوسون لهم » [2].

---

(١) فتح القدير ٢/١٥٣ بتصرف .
(٢) نفسه ٢/١٥٨ .

٤ – بمعنى الأمر ، يقول الله تعالى : ﴿ وإذ أوحيت إلى الحواريين أن آمنوا بى وبرسولى قالوا آمنا واشهد بأننا مسلمون ﴾ [المائدة : ١١١] .

يقول الإمام الآلوسى : « أى أمرتهم فى الإنجيل على لسانك ، أو أمرتهم على ألسنة رسلى ، وجاء استعمال الوحى بمعنى الأمر فى كلام العرب كما قال الزجاج وأنشد :

الحمد لله الذى استقلت بإذنه السماء واطمأنت

أوحى لها القرار فاستقرت

أى أمرها أن تقرّ فامتثلت ، وقيل : المراد بالوحى إليهم إلهامه تعالى إياهم » .[1] ومنه قوله تعالى : ﴿ إذ يوحى ربك إلى الملائكة أنى معكم فثبتوا الذين آمنوا ﴾ [الأنفال : ١٢] أى أمر سبحانه الملائكة بأن يثبتوا الذين آمنوا أى يبشروهم بالنصر ، أو يثبتوهم على القتال بالحضور معهم وتكثير سوادهم .

أما قوله تعالى : ﴿ وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحى إليه ﴾ [الأنبياء : ٢٥] فهذا عام فى جميع أنواعه .

وأصل الوحي في اللغة : إعلام في خفاء .[2]

يقول الراغب : « أصل الوحى الإشارة السريعة ، ويقال للكلمة الإلهية التى تلقى إلى أنبيائه وأوليائه وحى » .[3]

وفى الشرع : أن يعلم الله أنبياءه بعلم يخصهم به من غير كسب

---

(١) روح المعانى ٥٨/٧ .
(٢) انظر : لسان العرب ٣٧٩/١٥ وما بعدها .
(٣) مفردات الراغب ٥١٥ .

منهم ، ولا تعلم من غيرهم ، بل هو شئ يجدونه فى أنفسهم من غير تفكر ولا استنباط ، مقترنا بعلم وجدانى ضرورى بأن الذى ألقاه فى قلوبهم هو الرب القادر على كل شيء.

وعرفه الإمام محمد عبده بأنه : عرفان يجده الشخص من نفسه ، مع اليقين بأنه من قبل الله تعالى بواسطة ، أو بغير واسطة ، والأول بصوت يتمثل لسمعه أو بغير صوت . ،[1] أو هو : الإعلام الخفى السريع الخاص بمن يوجه إليه بحيث يخفى على غيره .

٢ - صور الوحى :

لقد اشتمل كتاب الله تعالى على بيان بعض أنواع الوحى وحالاته ، يقول الله تعالى : ﴿ وماكان لبشر أن يكلمه الله إلا وحيا أو من وراء حجاب أو يرسل رسولا فيوحى بإذنه ما يشاء إنه على حكيم ﴾ [الشورى : ٥١] فهذه الآية تشتمل على صور :

الأولى : إلقاء الموحى به في الروع[2] ، كقوله - صلى الله عليه وسلم - : « إن روح القدس نفث فى روعى ، لن تموت نفس حتى تستكمل رزقها فاتقوا الله وأجملوا فى الطلب »[3] أى أنه ألقى فى نفسه وعقله وباله شيئا مؤكدا لاشك فيه ، وهو أن كل نفس سوف تستوفى رزقها الذى قدره الله لها قبل أن تموت ، وهذا يطمئنها ويجعلها لا تلح فى طلب الرزق من الله .

---

(١) تفسير المنار ١٨٤/٢ . بتصرف يسير.
(٢) الروع بالضم : القلب والعقل والخلد والبال . مختار الصحاح ٢٩٠ .
(٣) كشف الخفاء ٢٦٨/١ - ٢٦٩ .

الثانية : الرؤيا الصادقة فى المنام فيقوم الرسول بتنفيذ ما رآه ، ومن ذلك ما حدث لإبراهيم – عليه السلام – يقول الله تعالى : ﴿ فلما بلغ معه السعى قال يا بنى إنى أرى فى المنام أنى أذبحك فانظر ماذا ترى قال يا أبت افعل ما تؤمر ستجدنى إن شاء الله من الصابرين ، فلما أسلما وتله للجبين ، وناديناه أن يا إبراهيم قد صدقت الرءيا إنا كذلك نجزى المحسنين ﴾[الصافات :١٠٣ : ١٠٥] فهذه رؤيا صادقة ، قام الخليل – عليه السلام – بتنفيذها ، ولو لم تكن وحيا ما أقدم خليل الله على تحقيقها .

وهذا النوع هو الذى تحدثت عنه زوج رسول الله – صلى الله عليه وسلم – السيدة عائشة – رضى الله عنها – قالت : أول ما بدئ به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، .[1]

وهذا النوع من الوحى لم ينزل به شىء من القرآن الكريم .

يقول الشيخ مناع القطان : « وليس فى القرآن شىء من هذا النوع ؛ لأنه نزل جميعه يقظة ، خلافا لمن ادعى نزول سورة الكوثر مناما للحديث الوارد فيها ، ففى صحيح مسلم عن أنس – رضى الله عنه – : بينما رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ذات يوم بين أظهرنا فى المسجد إذ أغفى إغفاءة ثم رفع رأسه مبتسما فقلت : ما أضحكك يا رسول الله ؟ فقال : نزلت علىّ آنفا سورة ، فقرأ : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ، إنا أعطيناك الكوثر ، فصل لربك وانحر ، إن شانئك

(١) صحيح البخارى ٦/١ باب كيف كان بدء الوحي إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – .

هو الأبتر ﴾ [1] فلعل الإغفاءة هذه هي الحالة التي كانت تعتريه عند الوحي ، .[2]

وهذه الحالة والسابقة عليها وهما إلقاء الموحى به في الروع ، والرؤيا الصادقة يشتمل عليهما قول الله تعالى : ﴿ إلا وحيا ﴾ .

الثالثة : وحي بواسطة كلام يسمعه الرسول ، ولا يرى المتكلم ، وهو متأكد أن هذا من الله تعالى ، كسماع موسى - عليه السلام - لربه، يقول الله تعالى : ﴿ وكلم الله موسى تكليما ﴾ [النساء : ١٦٤] ويقول تعالى في سورة القصص : ﴿ فلما أتاها نودى من شاطئ الواد الأيمن في البقعة المباركة من الشجرة أن يا موسى إني أنا الله رب العالمين ﴾ [آية : ٣٠] ويقول سبحانه : ﴿ ولما جاء موسى لميقاتنا وكلمه ربه قال رب أرني أنظر إليك ﴾ [الأعراف : ١٤٣] وكما حدث لنبينا - صلى الله عليه وسلم - وهو في معراجه حين كلمه ربه - عز وجل - وفرض عليه الصلاة وهذا ثابت في الصحيحين وغيرهما .

الصورة الرابعة وهي : وحي بواسطة ملك الوحي جبريل عليه السلام ، ويكون لذلك حالات :

الحالة الأولى : أن يأتيه مثل صلصلة الجرس ، وهذه الحالة كانت أشد حالات الوحي على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وفيها يبقى جبريل على حالته الروحية ، ويتصل بالرسول - صلى الله عليه وسلم -

---

(١) صحيح مسلم ٤٣٧/٢ ك الصلاة باب حجة من قال البسملة آية من أول كل سورة سوى براءة .
(٢) مباحث في علوم القرآن لمناع القطان /٧٧ .

والرسول يسمع مقدمات وصوله فى مثل صلصلة الجرس ، وكان أصحابه يعرفون اتصاله به مما كان يعانيه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من روحانية جبريل ، حتى إذا انتهى جبريل من تبليغ ما نزل به ، عاد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى حالته الطبيعية ، وقد وعى كل ما جاء به الوحى ، وأحس الجهد والتعب نتيجة هذا الاتصال حتى إن جبينه ليتصبب عرقا فى اليوم شديد البرودة ، كما روت ذلك السيدة عائشة - رضى الله عنها - حين قالت : « ولقد رأيته ينزل عليه الوحى فى اليوم الشديد البرد فيفصم عنه ، وإن جبينه ليتفصد عرقا » [1] والصلصلة هى « صوت خفق أجنحة الملك » .[2]

كما كان يصاحب هذه الحالة أيضا ثقل على الجسم حينا ، وبروك الناقة حينا آخر ، روى البخارى فى صحيحه عن زيد بن ثابت : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أملى عليه : ﴿ لا يستوى القاعدون من المؤمنين والمجاهدون فى سبيل الله ﴾ . قال : فجاءه ابن أم مكتوم وهو يمليها علىّ ، فقال : يا رسول الله لو أستطيع الجهاد لجاهدت ، وكان رجلاً أعمى ، فأنزل الله تبارك وتعالى على رسوله - صلى الله عليه وسلم - وفخذه على فخذى ، فثقلت علىّ حتى خفت أن ترض فخذى - أى تكسر - ثم سرى عنه ، فأنزل الله - عز وجل - ﴿ غير أولى الضرر ﴾ .[3]

---

(١) صحيح البخارى ١/٦ باب كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

(٢) الإتقان للسيوطى ٦١ .

(٣) صحيح البخارى ١٤٣/٢ ك الجهاد باب قوله تعالى : لا يستوى القاعدون من المؤمنين .

وهذه الحالة - أى حالة صلصلة الجرس - هى الحالة الوحيدة التى كان ينزل بها القرآن الكريم كله باتفاق العلماء ، ولم ينزل بحالة أو هيئة أخرى .[1]

الحالة الثانية : أن ينزل الوحى متمثلا فى صورة إنسان ، فيكلم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - فيعى ما يقول ، وهو متأكد أنه جبريل وإن لم يعرفه الصحابة ، والدليل على ذلك : أن عمر بن الخطاب - رضى الله عنه - وصف جبريل عندما جاء إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يسأله عن الإيمان والإسلام والإحسان وعلامات الساعة ، يقول : « بينما نحن جلوس عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ذات يوم ، إذ طلع علينا رجل شديد بياض الثياب ، شديد سواد الشعر ، لا يرى عليه أثر السفر ، ولا يعرفه منا أحد ، حتى جلس إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فأسند ركبتيه إلى ركبتيه ، ووضع كفيه على فخذيه ... ثم يقول : ثم انطلق . أى بعد أن انتهى من سؤاله رسول الله وإجابة الرسول - صلى الله عليه وسلم - فلبث مليا ، ثم قال لى : « يا عمر : أتدرى من السائل ؟ قلت : الله ورسوله أعلم . قال : « فإنه جبريل أتاكم يعلمكم أمور دينكم » .[2]

وكان أحيانا ينزل فى صورة الصحابى دحية بن خليفة الكلبى ، وقد ذكر الإمامان الخازن وابن كثير ما يشير إلى ذلك عند تفسير سورة الأحزاب فأفاد أن جبريل جاء فى صورة دحية الكلبى بعد أن انتهت

---

(١) هدى الفرقان ١/٦٧ .

(٢) صحيح مسلم ١/٣٧٢-٣٧٣ ك الإيمان باب ١ .

غزوة الخندق ، يخبر أن الملائكة لم تضع أسلحتها بعد ، وأمر الرسول أن يسير إلى بني قريظة لقتالهم ؛ لأنهم نقضوا عهدهم مع الرسول – صلى الله عليه وسلم – . يقول الدكتور غازى عناية :

« لماذا اختص جبريل الصحابى دحية الكلبى ليتمثل به من دون الصحابة ؟ يجيب العلماء بقولهم : لأن دحية الكلبى كان أجمل الصحابة ؛ ولذلك كان أليق بالملك النورانى أن يتمثل بمن هو أقرب إليه جمالا » [1] . وهذه الحالة التى كان يتمثل فيها جبريل بالبشر كانت أخف على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من حالة الصلصلة ؛ لأن جبريل يتحول إلى حالة مشابهة لرسول الله وهى صورة البشر .

وهاتان الحالتان ذكرهما الرسول – صلى الله عليه وسلم – رداً على سؤال أحد الصحابة وهو الحارث بن هشام ، روى البخارى بسنده عن عائشة – رضى الله عنها – أن الحارث بن هشام سأل النبى – صلى الله عليه وسلم – : كيف يأتيك الوحى ؟ فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « أحيانا يأتينى مثل صلصلة الجرس ، وهو أشده علىّ ، فيفصم عنى وقد وعيت عنه ما قال ، وأحيانا يتمثل لى الملك رجلا فيكلمنى فأعى ما يقول » [2] .

الحالة الثالثة : وهى أن يتمثل جبريل فى صورته الملائكية . وهذه الحالة ذكرها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى حديثه الصحيح الذى رواه عنه جابر بن عبد الله – رضى الله عنهما – .

---

(١) هدى الفرقان ١/٦٨ .

(٢) صحيح البخارى ١/٦ باب كيف كان بدء الوحى .

روى البخاري بسنده عن جابر أنه قال : سمعت النبي - صلى الله عليه وسلم - وهو يحدث عن فترة الوحي يقول : فبينا أنا أمشي سمعت صوتا من السماء ، فرفعت بصري قبل السماء ، فإذا الملك الذي جاءني بحراء قاعد على كرسي بين السماء والأرض فجئثت منه - أي فزعت ورعبت - حتى هويت إلى الأرض ، فجئت أهلي فقلت : زملوني زملوني ، فزملوني ، فأنزل الله تعالى : ﴿ يا أيها المدثر ﴾ إلى قوله : ﴿ فاهجر ﴾ .[1]

وذكر الإمام ابن كثير ، والإمام الخطيب الشربيني حديثا بينا فيه أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - رأى جبريل في صورته الملائكية . قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « رأيت جبريل عند سدرة المنتهى وله ستمائة جناح » .[2]

وهذه الحالة لم ينزل بها قرآن أيضا .

٣ - الأدلة على الوحي وإمكانه :

لما كان نزول الوحي على غير الطريقة المعتادة للبشر ، أصبح البعض ممن نصفهم بالمتعلمين وغيرهم ينكرون هذه الطريقة ، جريا وراء شكوك تلقوها عن أعداء الإسلام ، يسموما يبثونها في نفوس الناس ، ومعولا يريدون أن يهدموا به بنيان الدين ، بالتشكيك في إمكانية الوحي ؛ وبالتالي يشككون الناس في كتاب الله عز وجل . وفي الحقيقة لم يكن الرسول بدعا من الرسل ولم يكن الوحي أمرا مستحيلا ، فالوحي

---

(١) نفس المصدر ٣/ ٢١٠ ك التفسير سورة المدثر .
(٢) انظر تفسير ابن كثير ٣/ ٤٥٦ وتفسير السراج المنير ٣/ ٢٥٢ .

الذى نزل عليه – صلى الله عليه وسلم – يشبه الوحى الذى نزل على الأنبياء من قبله ، يقول الله تعالى : ﴿ إنا أوحينا إليك كما أوحينا إلى نوح والنبيين من بعده ﴾ [النساء : ١٦٣] وهو وسيلة اتصال الأنبياء بربهم ، يلقى إليهم التشريع الراقى الذى يسمو بالبشرية ، وينتشلها من الحضيض إلى القمة ، ومن الفوضى إلى النظام التام ، وما مثل هؤلاء المشككين إلا كمثل الذى ينعق بما لا يسمع إلا دعاء ونداء ، صم بكم عمى فهم لا يعقلون ، وهم كناطحى صخرة لا يصيبون إلا أنفسهم بالضرر .

نستدل على إمكان الوحى بما يلى:

١ – أن الناس يشاهدون ما وصل إليه العلم الحديث من مخترعات عجيبة ، وآلات دقيقة ، وقوانين تخفى على عقول الكثير ممن يؤمنون بها ويشاهدون آثارها ولا ينكرها أحد منهم ، فأصبح المرء يسمع صوت من يفصل بينهما مسافة كبيرة بواسطة التليفون ، والمذياع ، بل أصبح يرى صورته ويسمع صوته فى شاشات التليفزيون ، عبر إرسال الأقمار الصناعية ، وأصبح يسجل الصوت على شرائط الكاسيت ، ويخزن المعلومات فى برامج الكمبيوتر ليرجع إليها متى شاء ، وأصبح يخص نفسه بسماع الأصوات التى يريدها دون أن يسمع من بجواره بواسطة سماعات يضعها على أذنيه ، وهو يؤمن بذلك كله ، فى حين أنه من صنع البشر . فكيف ينكر قدرة الله فى إمكان الوحى ؟! .

٢ – ظاهرة التنويم المغناطيسى التى كشفها الدكتور « مسمر » الألمانى فى القرن الثامن عشر ، والتى يشاهدها الناس ، ويؤمن بها العلماء ويقرونها أكبر دليل على إمكان الوحى .

يقول الشيخ مناع القطان : « الناس اليوم يشاهدون التنويم المغناطيسى ، وهو يوضح لهم أن اتصال النفس الإنسانية بقوة أعلى منها يحدث أثرا يقرب إلى الأفهام ظاهرة الوحى ، حيث يستطيع الرجل القوى الإرادة ، أن يتسلط بإرادته على من هو أضعف منه فينام نوما عميقا ، ويكون رهن إشارته ، ويلقنه ما يريد ، فيجرى على قلبه ولسانه ، وإذا كان هذا فعل الإنسان بالإنسان فما ظنك بمن هو أشد منه قوة ؟ » .(١)

ويقول الشيخ الزرقانى : « وإننا نضع بين يديك تجربة واحدة من تجارب التنويم ، وهذه التجربة رأيتها بعينى ، وسمعتها بأذنى بنادى جمعية الشبان المسلمين على مرأى ومسمع من جمهور مثقف كبير ، ثم بين ما حدث من المنوِّم (بكسر الواو) وأنه استطاع أن يمحو من نفس وسيطه كل أثر يريد محوه ، مهما كان ثابتا فى النفس ؛ لأنه أمكنه أن يغير اسم الوسيط (أى الشخص الذى يجرى عليه التنويم) وأن يقنعه بذلك ، وكان هذا الشخص يرد عندما ينادى باسمه الجديد ، أما إذا نودى باسمه الحقيقى فإنه لا يرد ، وظل ذلك حوالى نصف الساعة ، ثم عاد إلى حالته الأولى من العلم باسمه الحقيقى ، ثم يقول : وبهذه التجربة ثبت لى أنا من طريق علمى ما قرب إلىّ الوحى عمليا ، وما جعلنى أعلله تعليلا علميا ، فالوحى عن طريق الملك عبارة عن اتصال الملك بالرسول اتصالا يؤثر به الأول في الثانى ، ويتأثر فيه الثانى بالأول ، وذلك باستعداد خاص فى كليهما ، فالأول فيه قوة الإلقاء

---

(١) مباحث فى علوم القرآن لمناع القطان ٣١ .

والتأثير ؛ لأنه روحانى محض ، والثانى فيه قابلية التلقى عن هذا الملك ؛ لصفاء روحانيته ، وطهارة نفسه المناسبة لطهارة الملك ، وعند تسلط الملك على الرسول ينسلخ الرسول عن حالته العادية ، ويظهر أثر التغير عليه ، ويستغرق فى الأخذ والتلقى عن الملك ، وينطبع فى نفسه ما تلقاه ، حتى إذا انجلى عنه الوحى ، وعاد إلى حالته الأولى وجد ما تلقاه ماثلاً فى نفسه حاضرا فى قلبه ، كأنما كتب فى صحيفة فؤاده كتابا .

ثم يقول : أتظن – أيها القارئ – أن المخلوق يستطيع أن يؤثر فى نفس مخلوق آخر ذلك التأثير بواسطة التنويم المغناطيسى ، ثم لا يستطيع مالك القوى والقدر أن يؤثر فى نفس من شاء من عباده بواسطة الوحى؟ كلا ثم كلا إنه على ما يشاء قدير ،.[1]

٣ – أن الصادق المعصوم – صلى الله عليه وسلم – قد أخبر بوقوع الوحى ، وذلك ثابت فى الكتاب والسنة ، كما شاهد الوحى معاصروه ، ونقل إلينا بالتواتر المستوفى لشروطه بما يفيد العلم القطعى إلى الأجيال اللاحقة ، مما لا يدع مجالا للشك فى إمكان الوحى وثبوته ؛ لأن صدق الرسول وعصمته ثابت بالمعجزة المقارنة لدعوته ، حيث إن وقوع المعجزة يدل على صدق الرسول فيما بلغ عن ربه .

ولقد لقب – صلى الله عليه وسلم – بالصادق الأمين ، وأظهر أعداؤه ذلك شهادة منهم له بالصدق ، شهدوا له عندما كان على الصفا وناداهم ، فتجمعوا عنده ، فقال لهم : أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح

(١) مناهل العرفان ٦٧/١ وما بعدها بتصرف .

هذا الوادى تريد أن تغير عليكم ، أو كنتم مصدقيّ ؟ قالوا : نعم ما جربنا عليك كذبا قط . وإذا كانوا قد أنكروا دعوته – صلى الله عليه وسلم – فإن الدافع لهم إلى ذلك هو الحسد ، قال تعالى – مخبرا عنهم – : ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ﴾ [الزخرف : ٣١-٣٢] .

٤ – بعض الشبهات على الوحى والرد عليها :

[الشبهة الأولى] : يدعى بعض أعداء الإسلام أن الوحى غير ممكن ، لأن الوحى لو كان ممكنا لأوحى الله إلى أفراد البشر عامة ، ولم يخص به شرذمة قليلين يجعلهم واسطة بينه وبين خلقه(١).

الغرض من هذه الشبهة : إنكار رسالة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن طريق إنكار إمكان الوحى ، وقد استندوا فى شبهتهم إلى أن الرسل بشر ، فلماذا لا ينزل الوحى على بقية البشر ؟

الرد على هذه الشبهة :

[أولا] : إن نزول الوحى على بشر يتطلب أن يكون لدى هؤلاء البشر استعداد لتلقى الوحى عن الله تعالى ، وهذا الاستعداد هو الارتقاء والاقتراب من روحانية الملك ، وليس كل فرد عنده الاستعداد لذلك ، وقد اقتضت حكمة الله تعالى أن يكون من البشر طائفة لها استعداد خاص ، يؤهلها لأن تتلقى الوحى عن الله ، وهذا هو الاصطفاء الذى يقول الله تعالى عنه : ﴿ الله يصطفى من الملائكة رسلاً ومن الناس إن الله سميع بصير ﴾ [الحج : ٧٥] .

---

(١) مناهل العرفان ١/٧٤.

[ثانيا] : إن مطلبهم أن ينزل الوحى على كل فرد من أفراد البشر أمر مستحيل ؛ لأنه لو نزل كما كان ينزل على الأنبياء والرسل لأنكروا ذلك كما أنكروا نزوله على الرسل ، وإن نزل فى صورته الملائكية لا يطيق البشر رؤيته ، فقد روى أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – طلب من جبريل – عليه السلام – أن يراه فى صورته ، فرآه له ستمائة جناح وقد سد الأفق ، فوقع مغشيا عليه .

وإن نزل فى صورة بشر كما كان ينزل فى بعض الأحيان على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فإنه يختلط عليهم أمره ؛ فلا يفرقون بينه وبين البشر ، ويظلون على إنكارهم وبالتالى ينزل بهم عقاب الله . ولقد سجل القرآن الكريم ذلك على المشركين ، عندما طلبوا أن يروا الملك فى صورته ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وقال الذين لا يرجون لقاءنا لولا أنزل علينا الملائكة أو نرى ربنا لقد استكبروا فى أنفسهم وعتوا عتوا كبيرا ﴾ [الفرقان : ٢١] وقال ﴿ وقالوا لن نؤمن لك حتى تفجر لنا من الأرض ينبوعا ، أو تكون لك جنة من نخيل وعنب فتفجر الأنهار خلالها تفجيرا ، أو تسقط السماء كما زعمت علينا كسفا أو تأتى بالله والملائكة قبيلا ﴾ [الإسراء : ٩٠-٩٢] ويقول : ﴿وقالوا لولا أنزل عليه ملك ولو أنزلنا ملكا لقضى الأمر ثم لا ينظرون ، ولو جعلناه ملكا لجعلناه رجلا وللبسنا عليهم ما يلبسون ﴾ [الأنعام : ٨ ، ٩] .

ثالثا : إن الدافع الذى دفعهم إلى إنكار الوحى هو عدم رؤيتهم الملك ، وإنكار وجود الشىء لعدم رؤيته أمر يرفضه العقل ؛ لأن كثيرا من الأشياء يؤمن بوجودها هؤلاء المنكرون وغيرهم دون أن يروها ، فهم لا يرون الهواء ومع ذلك لا ينكرون وجوده ، ونحن لا نرى

الكهرباء وغيرها من الأشياء الموجودة في الكون ومع ذلك لا ننكر وجودها ، فعدم رؤيتهم الملك لا يعتبر مبررا لهم لإنكار وجوده ، قياسا على غيره من الأشياء التي لا يرونها ولا ينكرون وجودها .

[الشبهة الثانية] : يقولون : إن إعجاز القرآن العرب لا يدل على أن القرآن كلام الله ، بل هو كلام محمد نسبه إلى ربه ؛ ليستمد قدسيته من هذه النسبة ، وإعجازه جاء من ناحية أن محمدا كان الفرد الكامل في بيانه ، شأنه شأن الرجل الفذّ بين أقرانه في كل عصر .

الغرض من هذه الشبهة :

إنكار إمكان الوحي أيضاً ، من جهة إثبات أن القرآن الكريم كلام محمد - صلى الله عليه وسلم - وليس وحيا من عند الله ، وبالتالي ينكرون رسالة النبي - صلى الله عليه وسلم - .

الرد على هذه الشبهة :

١ - إذا كان القرآن الكريم من كلام محمد - صلى الله عليه وسلم - كما يقولون ، وهذا القرآن أعجز العرب عن أن يأتوا بمثله ، أو بأقل سورة منه ، عندما تحداهم به لكان لمحمد - صلى الله عليه وسلم - الحق في أن يعلن ذلك ، وأن يفتخر بنسبته إلى نفسه ، وأن يترفع به عليهم ، وأن يدعي به ألوهيته ، لكنه كان في كل وقت يعلن أنه بشر مثلهم ، وأنه يتبع وحي الله تعالى إليه ، ويبين أن هذا التحدي من الله ، يقول الله تعالى ﴿ قل إنما أنا بشر مثلكم يوحى إلى أنما إلهكم إله واحد ﴾ [الكهف : ١١٠] ويقول : ﴿ وإذا تتلى عليهم آياتنا بينات قال الذين لا يرجون لقاءنا ائت بقرآن غير هذا أو بدله قل ما يكون لي أن أبدله من تلقاء نفسي إن أتبع إلا ما يوحى إلى إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم ﴾ [يونس : ١٥] .

٢ - لو كان القرآن كلام محمد نسبه إلى ربه ، ليستمد قدسيته من هذه النسبة - كما يقول هؤلاء الملاحدة - لنسب محمد - صلى الله عليه وسلم - كل كلام إليه ، لكنه - صلى الله عليه وسلم - كان يفرق بين الحديث والقرآن عندما نهى أصحابه عن كتابة شيء غير القرآن ، فقال : « لا تكتبوا عنى ، ومن كتب عنى غير القرآن فليمحه » .[1]

كما أن من أوتى حظا من حس البيان ، وذوق البلاغة يستطيع أن يفرق بين أسلوب القرآن وأسلوب الحديث النبوى ، ويجد فرقا كبيرا بينهما يمثل الفرق بين مقدور الخالق سبحانه وبين مقدور الخلق .

٣ - لو كان القرآن من كلام محمد - صلى الله عليه وسلم - لخلا من آيات النهى والعتاب ، ولاستطاع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن يرد على أجوبة من سألوه مباشرة ، أو يرد على افتراء من أشاعوا الإفك على السيدة عائشة - رضى الله عنها - .

فعندما صلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - على عبد الله بن أبىّ نهاه ربه عن الصلاة على المنافقين ، فقال : ﴿ ولا تصل على أحد منهم مات أبدا ولا تقم على قبره إنهم كفروا بالله ورسوله وماتوا وهم فاسقون ﴾ [التوبة : ٨٤] .

وعندما أذن لمن تخلفوا بغير عذر عن الجهاد فى غزوة تبوك عاتبه الله بقوله : ﴿ عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين ﴾ [التوبة : ٤٣] وعندما جاءه عبد الله بن أم مكتوم يسأله - صلى الله عليه وسلم - ومعه بعض سادات قريش يدعوهم إلى

---

(١) صحيح مسلم ٨/ ٤٥٥ كتاب الزهد باب التثبت فى الحديث وحكم كتابة العلم .

الإسلام ، عبس فى وجهه ، فنزلت ايات العتاب قال تعالى : ﴿ عبس وتولى ، أن جاءه الأعمى ، وما يدريك لعله يزكى ، أو يذكر فتنفعه الذكرى ﴾ [عبس : ١ - ٤] ولما حكم فى شأن أسرى بدر بما أشار عليه الصديق - رضى الله عنه - نزل العتاب من السماء : ﴿ ما كان لنبى أن يكون له أسرى حتى يثخن فى الأرض تريدون عرض الدنيا والله يريد الآخرة والله عزيز حكيم ﴾ [الأنفال : ٦٧] .

ولما سئل عن قصة أصحاب الكهف وقال : غدا أجيبكم ونسى المشيئة أبطأ عليه الوحى فترة حتى أصبح فى حرج فلو كان القرآن كلامه فما الذى يمنعه من سرعة الرد ؟!!

وعندما اتهم المنافقون السيدة عائشة - رضى الله عنها - بحديث الإفك ، وأشيع بين المسلمين ، ظل الرسول - صلى الله عليه وسلم - فى ضيق ، وتحرج هو وصحابته تحرجا شديدا ، وظل فى حيرة يتحرى يسأل زوجاته والخادمة بريرة وعليا - رضى الله عنه وكرم الله وجهه - حتى قال للسيدة عائشة - رضى الله عنها - : « أما إنه بلغنى كذا وكذا ، فإن كنت بريئة فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله » [1] ثم نزل الوحى ببراءتها ، فلو كان القرآن من كلامه لقال ما يخرس الألسنة ، ويحمى عرضه ، لكن ذلك لم يحدث ؛ لأنه - صلى الله عليه وسلم - لا يكذب على الناس ، فكيف يكذب على الله ؟!. يقول الله تعالى : ﴿ ولو تقول علينا بعض الأقاويل ، لأخذنا منه باليمين ، ثم لقطعنا منه الوتين ﴾ [الحاقة : ٤٤ : ٦٦] .

---

(١) صحيح البخارى ٣/ ٤٠ ك المغازى باب حديث الإفك .

٤ – إن المشركين الذين أنكروا الدعوة التى جاء بها رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لم ينكروا أن القرآن كلام الله ، لكنهم كانوا يحسدون النبى – صلى الله عليه وسلم – على نعمة اختياره لهذه المهمة ، قال تعالى : ﴿ وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم ، أهم يقسمون رحمة ربك نحن قسمنا بينهم معيشتهم فى الحياة الدنيا ورفعنا بعضهم فوق بعض درجات ليتخذ بعضهم بعضا سخريا ورحمة ربك خير مما يجمعون ﴾ [الزخرف : ٣١ : ٣٢] ولم ينكروا فصاحته لأنه من عند الله ، فكانوا يتناصحون بعدم سماعه ؛ لأنه يؤثر على عقولهم ، قال تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ [فصلت : ٢٦] .

وقد شهد الأعداء بعظمته : سمعه الوليد بن المغيرة فقال : « والله لقد سمعت من محمد كلاماً ما هو من كلام الإنس ولا من كلام الجن ، وإن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمر ، وإن أسفله لمغدق ، وإنه يعلو وما يعلى عليه ، هذه شهادة عدو ، والفضل ما شهدت به الأعداء .

كما أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان أميا ، ولم يكن صناعته البيان حتى يزعم هؤلاء ما زعموا قال تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذا لارتاب المبطلون ﴾ [العنكبوت : ٤٨] ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ وكذلك أوحينا إليك روحا من أمرنا ما كنت تدرى ما الكتاب ولا الإيمان ولكن جعلناه نورا نهدى به من نشاء من عبادنا ﴾ [الزخرف : ٥٢] .

٥ - إن للقرآن الكريم أوجها أخرى من أوجه إعجازه غير بلاغته ، منها تأثيره على أوليائه وعلى أعدائه ، ومنها : إخباره بالغيب ، ومنها : ما اشتمل عليه من علوم ومعارف ، وغير ذلك وما زعموه من أن إعجاز القرآن جاء من ناحية أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - كان الفرد الكامل فى بيانه يخالف ما فى القرآن الكريم من أوجه إعجازه التى ظهر منها الكثير ، ولا يزال يظهر إلى قيام الساعة .

أضف إلى ذلك : أن القرآن لو كان كلام محمد - صلى الله عليه وسلم - لأثر عن بعض أساطين البيان أنهم قد عارضوا القرآن أو حاولوا ، لكن ذلك لم يحدث ، لثقتهم فى أن القرآن الكريم كلام الله تعالى .

[الشبهة الثالثة] : زعم الجاهلون حديثا كما زعموا قديما أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - قد تلقى القرآن وتعلمه من أناس من البشر ، فمرة يقولون تعلمه من الراهب النصرانى بحيرا ، ومرة يقولون تعلمه من غلام رومى كان يعمل حدادا بمكة ، ومرة يقولون تعلمه من ناسك مكة ورقة بن نوفل .

الغرض من هذه الشبهة :

إبطال ما جاء به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن طريق إنكار الوحى الذى نزل به جبريل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وادعائهم أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - تعلم القرآن من بشر .

الرد على الشبهة :

[أولا] : بالنسبة لبحيرا الراهب النصرانى ، فإن الثابت تاريخيا أن

رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عندما كان عمره اثنتى عشرة سنة خرج مع عمه فى تجارة إلى الشام ، فلما التقى ببحيرا عرف فيه أمارات النبوة التى بشرت بها الكتب السابقة ، وطلب من عمه أن يحافظ عليه ، وحذره من يهود ، فهذه المرة ليست كافية – كما يزعمون – فى تعلم القرآن الكريم ، وبخاصة أن الواحد لا يستطيع حفظ القرآن إلا في سنوات . كما أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لو كان تعلم منه شيئا لأخبر قومه بذلك ولتنبأ فى وقتها مستندا على ما تعلم – كما يقولون – ، لكن المعروف أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعث فى سن الأربعين .

[ثانيا] : أما بالنسبة للغلام الرومى فإنه كان يعمل فى مكة حدادا ، ولم يكن متفرغا لدراسة الكتب ، بل كان متفرغا لعمله ، ولم يكن لسانه عربيا فكيف يعقل أن يعلمه قرآنا عربيا أعجز الفُصحاء ولسانه غير عربى وفاقد الشىء لا يعطيه ؟!

لقد رد الله هذا الزعم فقال : ﴿ ولقد نعلم أنهم يقولون إنما يعلمه بشر لسان الذى يلحدون إليه أعجمى وهذا لسان عربى مبين ﴾ [النحل : ١٠٣] .

[ثالثا] : وأما بالنسبة لما زعموا من أن المعلم ورقة بن نوفل فإن المعروف أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لما كان يتعبد فى غار حراء ، نزل عليه الوحى فعاد إلى بيته خائفا ، فطمأنته السيدة خديجة – رضى الله عنها – وأخذته وذهبت به إلى ابن عمها ورقة بن نوفل ، فطمأنه وبشره بالنبوة ، وقال له : إن هذا هو الناموس الذى أنزله الله على موسى ، ليتنى أكون حيا إذ يخرجك قومك فأنصرك نصرا مؤزرا ،

قال : أو مخرجي هم ؟! قال : نعم . ما جاء رجل بمثل ما جئت إلا أوذى فى قومه ، ولم تمض إلا فترة قصيرة حتى مات ورقة ، فكيف يزعمون أن ورقة هو الذى علمه ، والوحى ظل ينزل فى مدة قدرها العلماء بما يزيد على عشرين سنة ؟!

أضف إلى ذلك أن المتأمل فى القرآن الكريم يدرك أنه اشتمل على علوم لا تصدر عن بحيرا ولا غيره من البشر ، وإنما هى من عند خالق البشر .

وهكذا سيل من الشبهات ، لا أساس لواحدة منها من الصحة ، كلها افتراء وباطل ، وصدق الله العظيم حيث يقول : ﴿ فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث فى الأرض ﴾ [الرعد :١٧] .

ثالثا : أول ما نزل وآخر ما نزل من القرآن

اهتم كثير من المشتغلين بعلوم القرآن أن يبينوا ويحددوا أول وآخر ما نزل من كتاب الله تعالى ، بل حاول بعضهم أن يحدد أول وآخر ما نزل لكل حكم من أحكام الشريعة الغراء ، كالأطعمة والأشربة ، والقتال ، وغير ذلك .

ويعتمد تحديد أول ما نزل من القرآن على النقل والتوقيف ، أما مجال العقل فى هذا الموضوع فإنه ترجيح بعض الأدلة على بعض ، أو الجمع بينها فيما ظاهره التعارض .

وسبب الاختلاف فى تحديد أول وآخر ما نزل : أن الصحابة كانوا أميين ، فكان بعضهم يحفظ ما لم يحفظه البعض الآخر ، وكانوا منشغلين بالجهاد ونشر الدعوة ، فكانت الآية أو السورة تصل إلى بعضهم قبل أو بعد أن تصل سابقتها ، فيرتبون نزولها حسب وصولها إليهم ، وللعلماء فى تحديد أول ما نزل وآخر ما نزل على الإطلاق أقوال أوضحها فيما يلى :

أ - أول ما نزل على الإطلاق : ورد فى ذلك أقوال أربعة :

١ - **القول الأول** : أن أول ما نزل على الإطلاق قول الله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم ﴾ [العلق : ١ - ٥] وهذا يعتبر أصح الأقوال وأقواها جميعا .

استدل أصحاب هذا القول :

١ - بما رواه الشيخان وغيرهما عن عائشة - رضى الله عنها - قالت: « أول ما بدئ به رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من الوحى الرؤيا الصالحة فى النوم ، فكان لا يرى رؤيا إلا جاءت مثل فلق الصبح ، ثم حبب إليه الخلاء ، وكان يخلو بغار حراء ، فيتحنث فيه - وهو التعبد - الليالى ذوات العدد قبل أن ينزع إلى أهله ويتزود لذلك ، ثم يرجع إلى خديجة فيتزود لمثلها ، حتى جاءه الحق وهو فى غار حراء ، فجاءه الملك فقال : اقرأ . قال : ما أنا بقارئ . قال: فأخذنى فغطنى حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى فقال : اقرأ. قلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثانية حتى بلغ منى الجهد ، ثم أرسلنى ، فقال : اقرأ . فقلت : ما أنا بقارئ ، فأخذنى فغطنى الثالثة ثم أرسلنى فقال : اقرأ باسم ربك الذى خلق ، خلق الإنسان من علق ، اقرأ وربك الأكرم ، الذى علم بالقلم ، علم الإنسان ما لم يعلم . فرجع بها رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يرجف فؤاده ، فدخل على خديجة بنت خويلد - رضى الله عنها - فقال : زملونى زملونى ، فزملوه حتى ذهب عنه الروع .. » [1] إلى آخر الحديث .

فهذا الحديث الصحيح ينص على أن أول ما نزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ونزل به جبريل - عليه السلام - على قلبه هو هذه الآيات من سورة العلق .

---

(١) صحيح البخارى ٦/١ ، ٧ باب كيف كان بدء الوحى إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - .

٢ – وبما رواه الحاكم فى المستدرك ، والبيهقى فى الدلائل عن عائشة – رضى الله عنها – قالت : أول سورة نزلت فى القرآن : ﴿ اقرأ باسم ربك ﴾ .[1]

٣ – وبما أخرجه الطبرانى فى الكبير بسند على شرط الصحيح عن أبى رجاء العطاردى قال : كان أبو موسى يقرئنا ، فيجلسنا حلقا ، عليه ثوبان أبيضان ، فإذا تلا هذه السورة : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ قال : هذه أول سورة أنزلت على محمد – صلى الله عليه وسلم –"[2] وغير ذلك من الروايات التى تدل على أن أول ما نزل على الإطلاق الآيات الخمسة الأولى من سورة العلق .

٢ – القول الثانى : أن أول ما نزل إطلاقا هو قوله تعالى : ﴿ يأيها المدثر ، قم فأنذر ، وربك فكبر ... ﴾ .

استدل أصحاب هذا القول بما رواه الشيخان عن يحيى بن كثير قال: " سألت أبا سلمة بن عبد الرحمن بن عوف : أى القرآن أنزل قبل ؟ فقال : يأيها المدثر . فقلت : أو اقرأ ؟ . فقال : سألت جابر بن عبد الله : أى القرآن أنزل قبل ؟ فقال : يأيها المدثر ، فقلت : أو اقرأ ؟ .

وفى رواية أخرى له : فقلت : أنبئت أنه اقرأ باسم ربك . قال جابر: أحدثكم ما حدثنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : " جاورت بحراء شهرا ، فلما قضيت جوارى نزلت فاستبطنت بطن الوادى ، فنوديت فنظرت فلم أر أحدا ، ثم نوديت فرفعت رأسى ، فإذا هو على العرش فى الهواء – يعنى جبريل عليه السلام – فأخذتنى شديدة – أى

---

(١) مستدرك الحاكم ٢٢١/٢ .

(٢)أورده الهيثمى فى مجمع الزوائد ١٣٩/٧.

رجفة شديدة – ، فأتيت خديجة فقلت : دثرونى ، فدثرونى ، فصبوا علىّ ماء ، فأنزل الله – عز وجل – : ﴿ يأيها المدثر . قم فأنذر . وربك فكبر . وثيابك فطهر ﴾ [1] واستدلالهم هذا لا ينهض دليلا على قولهم لأمرين :

الأمر الأول : أنه ثبت فى رواية للإمام البخارى عن جابر أنه رأى الملك الذى جاءه بحراء وهذا يعتبر دليلا للرأى السابق ؛ لأن الملك الذى رآه قد جاءه قبل ذلك ، تقول الرواية : « فرفعت رأسى فإذا الملك الذى جاءنى بحراء جالس على كرسى بين السماء والأرض » .[2]

الأمر الثانى : أنه ثبت فى الرواية نفسها قول جابر : قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو يحدث عن فترة الوحى .

فإذا كان جابر قد اعتمد فى رأيه على أن المدثر أول ما نزل من الرواية الأولى ، فإن ذلك كان اجتهادا منه وظنا ، وكأنه لم يسمع ما حدث به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن الوحى قبل فترته ، ولم يحالفه الصواب فى ذلك ، فحديث السيدة عائشة – رضى الله عنها – نصٌ فى أن أول ما نزل هو ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ ومعلوم أن النص يقدم على الاجتهاد .

وفى البرهان : « وجمع بعضهم بينهما بأن جابرا سمع النبى – صلى الله عليه وسلم – يذكر قصة بدء الوحى ، فسمع آخرها ولم يسمع

---

(١) صحيح مسلم م١/ ٨٩٤ ك الإيمان باب : بدء الوحى إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – .
(٢) صحيح البخارى ١/ ٧ ك بدء الوحى .

أولها ، فتوهم أنها أول ما نزلت ، وليس كذلك ، نعم هي أول ما نزل بعد سورة (اقرأ) وفترة الوحي ، .[1]

والصحيح أن : ﴿ يأيها المدثر ﴾ أول ما نزل بعد فترة الوحي ، وأن أول ما نزل مطلقا هو : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ﴾ .[2]

القول الثالث : أن أول ما نزل هو سورة الفاتحة ، واحتج أصحاب هذا القول بما أخرجه البيهقي في الدلائل من طريق يونس بن بكير ، عن يونس بن عمرو ، عن أبيه ، عن أبي ميسرة عمرو بن شرحبيل ، أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - قال لخديجة : « إني إذا خلوت وحدي سمعت نداء ، فقد والله خشيت أن يكون هذا أمرا ، فقالت : معاذ الله ، ما كان الله ليفعل بك ، فو الله إنك لتؤدي الأمانة ، وتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، فلما دخل أبو بكر ذكرت خديجة حديثه له ، وقالت : اذهب مع محمد إلى ورقة ، فانطلقا فقصا عليه ، فقال : « إذا خلوت وحدي سمعت نداء خلفي : يا محمد ، فأنطلق هاربا في الأفق ، فقال : لا تفعل إذا أتاك ، فاثبت حتى تسمع ما يقول ، ثم ائتني فأخبرني . فلما خلا ناداه : يا محمد قل : (بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله رب العالمين) حتى بلغ (ولا الضالين) الحديث ، .[3]

قال البيهقي : « إن كان محفوظا فيحتمل أن يكون خبرا عن نزولها بعدما نزلت عليه (اقرأ) والمدثر ، [4] كما أن هذا لا يدل على أن الفاتحة كانت أول عهده بالوحي الجلي وهو في غار حراء .

---

(١) البرهان ١/٢٦٤ .

(٢) انظر تفسير ابن كثير ٤/٤٢٠ .

(٣) المصدر السابق .

(٤) نفس المصدر السابق . والحديث أخرجه البيهقي في دلائل النبوة ٢/٢٥٨ .

قال الإمام السيوطى : « هذا حديث مرسل رجاله ثقات » .[1]

وهو لا ينهض دليلا على ما يريدون ، ولا معارضا لحديث عائشة المتصل المرفوع إلى النبى – صلى الله عليه وسلم – الوارد فى الصحيحين .

القول الرابع : أن أول ما نزل قوله تعالى : (بسم الله الرحمن الرحيم) واحتج أصحاب هذا القول بما ذكر الواحدى فى أسباب النزول عن عكرمة والحسن قالا : أول ما نزل من القرآن (بسم الله الرحمن الرحيم) فهو أول ما نزل من القرآن بمكة ، وأول سورة (اقرأ باسم ربك) » .[2]

يقول الشيخ الزرقانى : « وهذا الاستدلال مردود من ناحيتين إحداهما : أن الحديث مرسل فلا يناهض المرفوع .

الثانية : أن البسملة كانت بطبيعة الحال تنزل صدرا لكل سورة إلا ما استثنى – كسورة التوبة – إذن فهى نازلة مع ما نزل من صدر سورة اقرأ ، فلا يستقيم اعتبار الأولية فى نزولها قولا مستقلا برأسه » .[3]

وهكذا ثبت أن القول الأول هو أرجح الأقوال فى تعيين أول ما نزل مطلقا .

---

(١) الإتقان /٣٤ .
(٢) أسباب النزول /٦ .
(٣) انظر مناهل العرفان ٩٦/١ .

ب – آخر ما نزل من القرآن الكريم :

إذا كان العلماء قد اختلفوا في تعيين أول ما نزل من القرآن الكريم فإن اختلافهم قد زاد فى تعيين آخر ما نزل من القرآن الكريم ، والدليل على ذلك أن أقوالهم قد بلغت عشرة ، وقد استند كل صاحب قول إلى آثار ليس فيها حديث مرفوع إلى النبى – صلى الله عليه وسلم – .

[القول الأول] : أن آخر ما نزل آية الربا فى سورة البقرة ، وهى قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين ءامنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين ﴾ [سورة البقرة : ٢٧٨] .

واستدل أصحاب هذا القول بما أخرجه الإمام البخارى فى صحيحه بسنده عن ابن عباس – رضى الله عنه – قال : « آخر آية نزلت على النبى – صلى الله عليه وسلم – آية الربا » .(١)

[القول الثانى] : أن آخر ما نزل قوله تعالى : ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ [سورة البقرة : ٢٨١] .

واستدل أصحاب هذا القول بما رواه الإمام ابن جرير الطبرى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : « آخر آية نزلت على النبى – صلى الله عليه وسلم – من القرآن ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ﴾ ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ، قال ابن جريج : يقولون : إن النبى – صلى الله عليه وسلم – مكث بعدها تسع ليال » .(٢)

[القول الثالث] : أن آخر ما نزل من القرآن الكريم آية الدين فى

---

(١) صحيح البخارى ٣/١٠٩ ك التفسير باب سورة البقرة .

(٢) جامع البيان ٣/٧٦ .

سورة البقرة ، وهى قوله تعالى : ﴿ يأيها الذين ءامنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ والله بكل شيء عليم ﴾ [البقرة : ٢٨٢] وهى أطول آية فى القرآن الكريم .

واستدل أصحاب هذا القول بما روى عن سعيد بن المسيب : « أنه بلغه أن أحدث القرآن عهدا بالعرش آية الدين » .(١)

وقد جمع الإمام السيوطى بين الأقوال الثلاثة السابقة فقال : « ولا منافاة عندى فى هذه الروايات لأن الظاهر أنها نزلت دفعة واحدة كترتيبها فى المصحف ؛ لأنها فى قصة واحدة ، فأخبر كل عن بعض ما نزل بأنه آخر ، وذلك صحيح » .(٢)

أما الشيخ الزرقانى فقد رجح أن آخر ما نزل من القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ﴾ فقال : « ولكن النفس تستريح إلى أن آخر هذه الثلاثة نزولا هو قول الله تعالى : ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ثم توفى كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون ﴾ وذلك لأمرين : أحدهما : ما تحمله هذه الآية فى طياتها من الإشارة إلى ختام الوحى والدين ، بسبب ما تحث عليه من الاستعداد ليوم المعاد ، وما تنوه به من الرجوع إلى الله ، واستيفاء الجزاء العادل من غير غبن ولا ظلم ، وذلك كله أنسب بالختام من آيات الأحكام المذكورة فى سياقها.

ثانيهما : التنصيص فى هذه الرواية علي أن النبى – صلى الله عليه وسلم – عاش بعد نزولها تسع ليال فقط ، ولم تظفر الآيات الأخرى بنص مثله » .(٣)

---

(١) المصدر السابق ٧٦/٣ .
(٢) الإتقان فى علوم القرآن ٣٨/١ .
(٣) مناهل العرفان ٩٧/١ – ٩٨ بتصرف يسير .

القول الرابع : أن آخر ما أنزل من القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ يستفتونك قل الله يفتيكم فى الكلالة ... ﴾ [النساء : ١٧٦] .

واستدل أصحاب هذا القول بما رواه الإمام البخارى عن البراء بن عازب – رضى الله عنه – قال : آخر سورة نزلت براءة ، وآخر آية نزلت (يستفتونك) .[1]

وقد بين الإمام السيوطى رأيه فى ذلك فقال : « وقول البراء : آخر ما نزل (يستفتونك) أى فى شأن الفرائض »[2] فالأخروية هنا محمولة على أنها مقيدة بما يتعلق بالمواريث .

القول الخامس : أن آخر ما نزل قوله تعالى : ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح . ورأيت الناس يدخلون فى دين الله أفواجا . فسبح بحمد ربك واستغفره إنه كان توابا ﴾ .

واستدل أصحاب هذا القول بما رواه الإمام مسلم فى صحيحه بسنده عن عبيد الله بن عبد الله بن عتبة قال : قال لى ابن عباس : تعلم آخر سورة نزلت من القرآن ، نزلت جميعا ؟ قلت : نعم . ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ قال : صدقت » .[3]

هذا الأثر لا يعتبر دليلا على ما أراد أصحاب هذا القول لأمرين :

الأمر الأول : أن المراد من آخر سورة نزلت ، أنها نزلت مشعرة بوفاة النبى – صلى الله عليه وسلم – ؛ لأنها حين نزلت قال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : « نعيت إلىّ نفسى » .

---

(١) صحيح البخارى ٣/١٢٣ ك التفسير باب سورة النساء .
(٢) الإتقان /٣٨ .
(٣) صحيح مسلم جـ٨/ ٤٩٠ ك التفسير .

الأمر الثانى : أن المراد بآخر سورة نزلت : أنها نزلت دفعة واحدة ، فهى سورة مدنية ومن خصائص السور المدنية الإطناب وطول السور والآيات ، ويؤيد ذلك ما فى هذه الرواية من قوله تعالى : « نزلت جميعا » أى أنها نزلت دفعة واحدة .

القول السادس : أن آخر ما نزل من القرآن الكريم قوله تعالى : ﴿ ومن يقتل مؤمنا متعمدا فجزاؤه جهنم خالدا فيها وغضب الله عليه ولعنه وأعد له عذابا عظيما ﴾ [النساء : ٩٣] .

واستدل أصحاب هذا القول بما رواه الإمام البخارى فى صحيحه عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : نزلت هذه الآية : ﴿ ومن يقتل مؤمنا فجزاؤه جهنم ﴾ هى آخر ما نزل وما نسخها شىء ﴾ .[1]

ويلاحظ من هذه الرواية أن هذه الآية ليست آخر ما نزل على الإطلاق ، لكنها آخر ما نزل فى حكم قتل المؤمن عمدا ، ولم يجئ بعدها ناسخ لها .

القول السابع : أن آخر ما نزل قوله تعالى : ﴿ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم من ذكر أو أنثى بعضكم من بعض ﴾ [آل عمران : ١٩٥] .

استدل أصحاب هذا القول بما رواه ابن مردويه من طريق مجاهد عن أم سلمة – رضى الله عنها – أنها قالت : « آخر آية نزلت هذه الآية: ﴿ فاستجاب لهم ربهم أنى لا أضيع عمل عامل منكم ﴾ إلى آخرها . وذلك أنها قالت : يا رسول الله . أرى الله يذكر الرجال ولا يذكر النساء

---

(١) صحيح البخارى ٣/١٢١ ك التفسير سورة النساء .

فنزلت : ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ﴾ [النساء : ٣٢] ونزل : ﴿ إن المسلمين والمسلمات ﴾ [الأحزاب : ٣٥] ونزلت هذه الآية ، فهى آخر الثلاثة نزولا ، وآخر ما نزل بعدما كان ينزل فى الرجال خاصة ، .[١]

هذا الدليل لا يدل على أن هذه الآية آخر ما نزل على الإطلاق ، لكنه يدل على أنها آخر الايات التى نزلت فى شأن النساء بعد قوله تعالى : ﴿ ولا تتمنوا ﴾ وقوله : ﴿ إن المسلمين والمسلمات ﴾ وذلك بعد أن كان يذكر الرجال خاصة.

القول الثامن : أن آخر ما نزل قوله تعالى : ﴿ لقد جاءكم رسول من أنفسكم عزيز عليه ما عنتم حريص عليكم بالمؤمنين رءوف رحيم ، فإن تولوا فقل حسبى الله لا إله إلا هو عليه توكلت وهو رب العرش العظيم ﴾ [التوبة : ١٢٨-١٢٩] .

استدل أصحاب هذا القول بما رواه الإمام أحمد بسنده عن ابن عباس - رضى الله عنهما - عن أبى بن كعب قال : آخر آية نزلت من القرآن هذه الآية : ﴿ لقد جاءكم رسول ﴾ إلى آخر السورة .

وبما رواه عبد الله بن الإمام أحمد فى زوائد المسند عن أبى بن كعب : أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أقرأه هاتين الآيتين إلى آخر سورة التوبة ، قال : هذا آخر ما نزل من القرآن .[٢]

رد الشيخ الزرقانى هذا الاستدلال فقال : ، ويمكن نقضه بأنها آخر

---

(١) الإتقان ٣٩/١ .

(٢)مسند الإمام أحمد ١١٧/٤ .

ما نزل من سورة براءة لا آخر مطلق ، ويؤيده ما قيل من أن هاتين الآيتين مكيتان بخلاف سائر السورة . ولعل قوله سبحانه : ﴿ فإن تولوا فقل حسبى الله ﴾ إلخ ، يشير إلى ذلك من حيث عدم الأمر فيه بالجهاد عند تولى الأعداء وإعراضهم » .[1]

القول التاسع : أن آخر ما نزل قوله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ [المائدة : ٣] .

استدل أصحاب هذا القول بأن هذه الآية نزلت بعرفة عام حجة الوداع ، وظاهرها إكمال الفرائض والأحكام قبلها ، وقد صرح بذلك جماعة منهم السدى فقال : لم ينزل بعدها حلال ولا حرام ، ورجع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فمات ، وذكر ابن جريج أن النبى – صلى الله عليه وسلم – مكث بعدما نزلت هذه الآية إحدى وثمانين ليلة » .[2]

ويرد عليهم : بأن آية الربا وآية الدين وهما من آيات الأحكام أنزلتا بعد ذلك ، وليس المراد من إكمال الدين إذن إكمال الفرائض والأحكام ، وهذا ما بنى عليه أصحاب هذا القول رأيهم .

يقول الإمام ابن جرير الطبرى : « وأولى الأقوال فى ذلك بالصواب أن يقال : إن الله – عز وجل – أخبر نبيه – صلى الله عليه وسلم – والمؤمنين به أنه أكمل لهم يوم أن أنزل هذه الآية على نبيه دينهم بإفرادهم بالبلد الحرام ، وإجلائه عنه المشركين ، حتى حجه المسلمون

---

(١) مناهل العرفان ٩٩/١ .

(٢) جامع البيان م٤ جـ٦/ ٥١ ، ٥٢ بتصرف .

دونهم لا يخالطهم المشركون ، فأما الفرائض والأحكام فقد اختلف فيها، ولا يدفع ذو علم أن الوحى لم ينقطع عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – إلى أن قبض ، بل كان الوحى قبل وفاته أكثر ما كان تتابعا ، فإن قال قائل : فما جعل قول من قال : قد نزل بعد ذلك فرض أولى من قول من قال : لم ينزل . قيل : لأن الذى قال : لم ينزل مخبر أنه لا يعلم نزول فرض ، والنفى لا يكون شهادة ، والشهادة قول من قال نزل، وغير جائز دفع خبر الصادق فيما أمكن أن يكون فيه صادقا » .[1]

القول العاشر : أن آخر ما نزل هو آخر سورة الكهف قوله تعالى: ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ .

استدل أصحاب هذا القول بما رواه الإمام ابن جرير الطبرى بسنده قال : ثنا عمرو بن قيس الكندى أنه سمع معاوية بن سفيان تلا هذه الآية : ﴿ فمن كان يرجو لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا ﴾ وقال : إنها آخر آية أنزلت من القرآن » .[2]

ورد الإمام ابن كثير على هذه الرواية فقال : وهذا أثر مشكل ؛ فإن هذه الآية آخر سورة الكهف ، والكهف كلها مكية ، ولعل معاوية أراد أنه لم ينزل بعدها آية تنسخها ولا تغير حكمها ، بل هى مثبتة محكمة ، فاشتبه ذلك على بعض الرواة ، فروى بالمعنى على ما فهمه » .[3]

وهكذا اختلفت الأقوال فى تحديد آخر ما نزل من القرآن الكريم

---

(١) المصدر السابق م٤ جـ٦/٥٢ بتصرف .

(٢) المصدر السابق م٨ جـ١٦/٣٢ .

(٣) تفسير ابن كثير ٣/١١٠ .

على الإطلاق ، وقد وقف العلماء من هذه الإختلافات موقفين مختلفين .

أما الشيخ الزرقاني فقد رجح القول القائل : أن آخر القرآن نزولا على الاطلاق قوله تعالى : ﴿ واتقوا يوما ترجعون فيه إلى الله ﴾ وذكر أسباب ترجيحه كما سبق ، وأخبر أن هذا الرأى هو الذى تستريح له النفس .

وأما القاضى أبو بكر الباقلانى فقد ذكر أسباب الاختلاف ، ولم ينشغل بترجيح قول على آخر ، ورضى بهذا القول الإمام الزركشى ، يقول نقلا عن القاضى أبى بكر الباقلانى : « قال القاضى أبو بكر فى (الانتصار) : وهذه الأقوال ليس فى شىء منها ما رفع إلى النبى – صلى الله عليه وسلم – ، ويجوز أن يكون قاله قائله بضرب من الاجتهاد وتغليب الظن ، وليس العلم بذلك من فرائض الدين ، حتى يلزم ما طعن به الطاعنون من عدم الضبط .

ويحتمل أن كلا منهم أخبر عن آخر ما سمعه من رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى اليوم الذى مات فيه ، أو قبل مرضه بقليل ، وغيره سمع منه بعد ذلك ، وإن لم يسمعه هو لمفارقته له ، ونزول الوحى عليه بقرآن بعده .

ويحتمل أيضا أن تنزل الآية التى هى آخر آية تلاها الرسول – صلى الله عليه وسلم – مع آيات نزلت معها ، فيأمر برسم ما نزل معها، وتلاوتها عليهم بعد رسم ما نزل آخرا وتلاوته ، فيظن سامع ذلك أنه آخر ما نزل فى الترتيب ، [1] وأرجح ما ذهب إليه الشيخ الزرقانى ؛ لوجود مرجح مع هذا القول دون غيره من الأقوال الأخرى .

---

(١) البرهان للزركشى ٢٦٨/١ .

رابعا : - المكى والمدنى

١ - تعريف المكى والمدنى

بدأ نزول الوحى على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وهو فى سن الأربعين ، نزل عليه فى غار حراء بقول الله تعالى : ﴿ اقرأ باسم ربك الذى خلق ... ﴾ ثم تتابع نزول الوحى بعد ذلك ثلاثة عشر عاما بمكة ، ولما هاجر المصطفى – صلى الله عليه وسلم – إلى المدينة تتابع نزوله عليه عشر سنوات ، حتى لحق بالرفيق الأعلى .

ومن خلال ما ذكر يتضح أن نزول القرآن على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كان فى عهدين : مكى ، ومدنى ؛ لذلك قسم العلماء سور وآيات القرآن الكريم قسمين : مكى النزول ومدنى النزول ، لكنهم اختلفوا فى تعريف المكى والمدنى ، جاء هذا الاختلاف نتيجة لاختلاف وجهة نظرهم فى كيفية التعريف ، فمنهم من راعى فى تعريفه حال المخاطبين ، ومنهم من راعى فى التعريف مكان النزول ، ومنهم من راعى فى التعريف زمان النزول ، ونتج عن ذلك ثلاثة اصطلاحات لكل من المكى والمدنى وهى :

الأول : أن المكى : ما كان خطابا لأهل مكة ، ويعبر عنه بقوله تعالى : ﴿ يأيها الناس ﴾ وألحق بعضهم به قوله تعالى : ﴿ يا بنى آدم ﴾.

وأن المدنى : ما كان خطابا لأهل المدينة ، ويعبر عنه بقوله تعالى : ﴿ يأيها الذين ءامنوا ﴾ .

الثانى : أن المكى : ما نزل بمكة وضواحيها ، كمنى ، وعرفات ،

والحديبية ولو بعد الهجرة وأن المدنى : ما نزل بالمدينة وضواحيها ، كبدر ، وأحد ، وسلع .

الثالث : أن المكى : ما نزل قبل الهجرة ، وأن المدنى : ما نزل بعد الهجرة ، سواء نزل بمكة أم بالمدينة ، كقوله تعالى : ﴿ اليوم أكملت لكم دينكم وأتممت عليكم نعمتى ورضيت لكم الإسلام دينا ﴾ [المائدة : ٣] فإنها نزلت بمكة فى حجة الوداع ، أم نزل بسفر من الأسفار كسورة الفتح فإنها نزلت فى الطريق أثناء عودة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – والمسلمين من الحديبية .

يقول الإمام السيوطى : « أخرج عثمان بن سعد الرازى بسنده إلى يحيى بن سلام ، قال : ما نزل بمكة وما نزل في طريق المدينة قبل أن يبلغ النبى – صلى الله عليه وسلم – المدينة فهو من المكى ، وما نزل على النبى – صلى الله عليه وسلم – فى أسفاره بعدما قدم المدينة فهو من المدنى ؛ وهذا أثر لطيف يؤخذ منه أن ما نزل في سفر الهجرة مكى اصطلاحا » .(١)

مقارنة بين التعريفات :

بالنظر إلى التعريف الأول نجد أنه غير ضابط ولا حاصر ، وذلك لأمرين :

الأول : أنه بالتأمل فى سور القرآن الكريم نجد أن فيها ما نزل غير مصدر بـ﴿ يأيها الناس ﴾ أو بـ﴿ يأيها الذين ءامنوا ﴾ كما فى قوله تعالى: ﴿ يأيها النبى اتق الله ولا تطع الكافرين والمنافقين ﴾ [الأحزاب : ١] .

الثانى : يقول الشيخ الزرقانى : « إن هذا التقسيم غير مطرد فى

(١) الإتقان للسيوطى ١١ .

جميع موارد الصيغتين المذكورتين ، بل إن هناك آيات مدنية صدرت بصيغة ﴿ يأيها الناس ﴾ وهناك آيات مكية صدرت بصيغة ﴿ يأيها الذين ءامنوا ﴾ مثال الأولى سورة النساء ، فإنها مدنية ، ومثال الثانية سورة الحج فإنها مكية ، مع أن في أواخرها : ﴿ يأيها الذين ءامنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم ﴾ . قال بعضهم : « هذا القول إن أخذ على إطلاقه ففيه نظر ؛ فإن سورة البقرة مدنية ، وفيها : ﴿ يأيها الناس اعبدوا ربكم ﴾ إلى آخر ما ذكرناه أمامك ، غير أنه قال أخيرا ما نصه : فإن أريد أن الغالب كذلك فصحيح ، ثم يقول : « ولكن صحة الكلام فى ذاته لا تسوغ صحة التقسيم ، فإن من شأن التقسيم السليم أن يكون ضابطا حاصرا ، وأن يكون مطردا ، وقيد الغالبية المراد لا يحقق الضبط والحصر وإن حقق الإطراد ، فيبقى التقسيم معيبا ، على أنهم قالوا : المراد لا يدفع الإيراد » .[1]

* وبالنظر إلى التعريف الثاني نجد أنه غير ضابط ولا حاصر أيضا، حيث إنه لا يشمل ما نزل بغير مكة وضواحيها ، أو المدينة وضواحيها ، أو ما نزل بسفر من الأسفار ، كسورة الفتح ، أو ما نزل ببيت المقدس كقوله تعالى : ﴿ واسأل من أرسلنا من قبلك من رسلنا أجعلنا من دون الرحمن آلهة يعبدون ﴾ [الزخرف : ٤٥] .

يقول الشيخ : الزرقاني : « ولا ريب أن عدم الضبط فى التقسيم يترك واسطة لا تدخل فيما ذكر من الأقسام ، وذلك عيب يخل بالمقصود الأول من التقسيم ، وهو الضبط والحصر » .[2]

– أما بالنسبة للتعريف الثالث فإنه تعريف شامل جامع مانع ؛ لذلك فإنه يعتبر أدق التعريفات ، وأولاها بالقبول .

---

(١) مناهل العرفان ١/ ١٩٤ بتصرف .

(٢) المصدر السابق ١/ ١٩٣ .

٢ - هل للعلم بالمكى والمدنى فائدة ؟

قد يظن البعض أن الاشتغال بمعرفة المكى والمدنى ليست له فائدة، وأنه تضييع الوقت ، والحقيقة أن الاشتغال بمعرفة المكى والمدنى له فوائد منها :

أولاً : معرفة ما يوجد فى القرآن الكريم من ناسخ ومنسوخ .

اقتضت حكمة الله تعالى أن ينسخ بعض الأحكام فى كتابه تعالى ، وحتى نعرف الناسخ والمنسوخ فإن ذلك يلزمه معرفة المتقدم والمتأخر في النزول ، حيث إن المتأخر ينسخ المتقدم ، ومعلوم أن المكى متقدم فى النزول ، والمدنى متأخر فى النزول ، وهكذا تتضح فائدة معرفة المكى والمدنى فى تمييز الناسخ من المنسوخ .

ثانياً : الإيمان بعظمة التشريع الإسلامى ، ووضوح رحمة الله بالعباد التى تتمثل فى التدرج فى التشريع .

شاءت إرادة الله أن يأخذ بيد البشر من القاع إلى القمة ، وأن ينتقل بهم من التعود على الرذيلة إلى التحلي بالفضيلة ، فى رفق وهوادة ، وقد سلك بهم هذا المسلك فى سهولة ويسر، تحقق ذلك بالتدرج معهم فى تشريع الشرائع رحمة بهم ، وبيانا لفضله عليهم والتدرج فى تحريم الخمر أوضح دليل على ذلك .

ثالثا : تذوق أساليب القرآن الكريم والاستفادة منها فى الدعوة إلى الله تعالى .

---

(١) السابق ١/١٩٣ .

لكل من المكى والمدنى خصائص فى أسلوبه ، وفى طرق خطابه ، يتضح ذلك فى خطاب الله لأهل مكة ، وفى خطابه لأهل المدينة ، وفى خطابه للمنافقين ، وبتذوقنا لهذه الأساليب ، والوقوف على ما تتضمنه من طرق الخطاب ، يتحتم علينا أن نستفيد منها فى دعوتنا إلى الله تعالى ، وأن نراعى أحوال المخاطبين ، وأن نعلم أن لكل مقام مقالا ، وأن نتخير الوقت المناسب لما نريد .

رابعاً : الثقة فى تواتر القرآن الكريم ، ووصوله إلينا سالما من التغيير والتحريف .

من يتأمل ما وصل إليه المسلمون من معرفة مكى القرآن ومدنيه ، وما نزل بالحضر وما نزل بالسفر ، وما نزل بالنهار ، وما نزل بالليل وغير ذلك ، يدرك مدى اهتمام المسلمين بالقرآن الكريم ، وأنه ليس من المعقول أن يهتموا به هذا الاهتمام البالغ ، ثم يتركوا أحدا يمسه بسوء أو يعبث به ، فتطمئن النفوس جيدا إلى أن الله تعالى قد قيض لكتابه الكريم من يحافظ عليه ، وصدق ربنا حيث يقول : ﴿ إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون ﴾ [الحجر : ٩] .

خامساً : تبصير القارئ والمفسر بالمعنى الصحيح للآية وإبعاده عن الخطأ فى تفسيرها .

ذلك أن من قرأ سورة ﴿ قل يأيها الكافرون ﴾ ولم يعلم زمن نزولها ، فإنه يحار فى معناها ، وقد يستخرج منها أن المسلمين لا يكلفون بالجهاد فى أى الأحوال ، وإنما عليهم أن يقولوا للآخرين : لكم دينكم ولى دينى ، فإذا علم أن هذه السورة مكية ، وأنها نزلت عندما قال بعض صناديد الشرك لرسول الله – صلى الله عليه وسلم – : تعال

يا محمد نعبد إلهك يوما ، وتعبد إلهنا يوما ، أدرك أن هذه السورة إنما هي علاج لتلك المرحلة ذاتها ، وليست دليلا على عدم مشروعية الجهاد الذي نزلت فيه آيات أخرى كثيرة في المدينة ، .[1]

سادساً : الوقوف على حقيقة السيرة من خلال الآيات القرآنية .

إن تتابع الوحي على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ساير تاريخ الدعوة في عهديها المكي والمدني ، والمرجع الأصيل لهذه السيرة هو القرآن الكريم ، فإن جاء ما رواه أهل السيرة موافقا للقرآن قبلناه ، وإن جاء مخالفا للقرآن رددناه ، .[2]

وسأضرب مثالا لذلك ، يقول الإمام الخطيب الشربيني – عند تفسير قوله تعالى : ﴿أرأيت الذى ينهى عبدا إذا صلى﴾ [العلق : ٩–١٠] –: ، وعن الحسن أنه أمية بن خلف كان ينهى سلمان عن الصلاة ، .[3]

فمن عرف أن سورة العلق مكية بالاتفاق رد هذا القول ؛ لأن سلمان الفارسي – رضي الله عنه – أسلم في المدينة بعد الهجرة ، وهكذا أوقفنا العلم بالمكي والمدني على الحقيقة .

سابعاً : حسن الثواب والأجر الذى يلحق الباحث عن المكي والمدني .

إن الباحث عن المكي والمدني لا يتمكن من معرفة ذلك إلا إذا تبحر في علم من علوم القرآن ، ويساعده على ذلك فهم العلوم الأخرى،

---

(١) من روائع القرآن ٨٨ بتصرف يسير .
(٢) مباحث في علوم القرآن لمناع القطان : ٦٠ بتصرف .
(٣) تفسير السراج المنير ٤/٤٧٣ .

ودراستها ، وبذلك تكون إرادة معرفة المكي والمدني قد فتحت الباب أمام الباحث لينال ثواب الله تعالى ». [1]

وهكذا اتضحت لنا فوائد كثيرة لمعرفة المكي والمدني .

٢ - كيفية معرفة المكي والمدني

لم يختلف أحد على أن المكي والمدني من القرآن الكريم لا يعرف إلا بنص ورد عن الصحابة والتابعين في ذلك ، فلم يرد عن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بيان وتعيين المكي والمدني ؛ وذلك لعدم احتياج المسلمين في عهد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - لهذا البيان ؛ لأنهم يشاهدون الوحي حين ينزل على رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ويعرفون مكانه ، وزمانه وأسباب النزول ، يشهد لصحة هذا القول ما رواه الإمام البخاري بسنده عن عبد الله بن مسعود - رضي الله عنه - قال : « والله الذي لا إله غيره ما أنزلت سورة من كتاب الله إلا أنا أعلم أين نزلت ، ولا أنزلت آية من كتاب الله إلا أنا أعلم فيم أنزلت ، ولو أعلم أحدا أعلم مني بكتاب الله تبلغه الإبل لركبت إليه ». [2]

وقال الزركشي في البرهان نقلا عن الجعبري : « لمعرفة المكي والمدني طريقان : سماعي وقياسي ، فالسماعي ما وصل إلينا نزوله بأحدهما ». [3]

---

(١) هدى الفرقان ١/١٧٦ بتصرف .
(٢) صحيح البخاري ٣/٢٢٨ ك فضائل القرآن باب القراء عن أصحاب النبي .
(٣) البرهان للزركشي ١/٢٤٢ .

يقول الشيخ مناع القطان : « والمنهج القياسى الاجتهادى يستند إلى خصائص المكى ، وخصائص المدنى ، فإذا ورد فى السورة المكية آية تحمل طابع التنزيل المدنى ، أو تتضمن شيئا من حوادثه قالوا إنها مدنية ، وإذا ورد فى السورة المدنية آية تحمل طابع التنزيل المكى أو تتضمن شيئا من حوادثه قالوا إنها مكية ، وإذا وجد فى السورة خصائص المكي قالوا إنها مكية ، وإذا وجد فيها خصائص المدنى قالوا إنها مدنية ، وهذا قياس اجتهادى » .[1]

أولا : ضوابط معرفة المكى :

١ – كل سورة فيها لفظ (كلا) فهى مكية ، وهذا اللفظ ذكر فى القرآن الكريم ثلاثا وثلاثين مرة ، فى خمس عشرة سورة ، كلها فى النصف الأخير ، فأكثر النصف الأخير نزل بمكة ، وكان أكثرها جبابرة ، غلاظ القلوب ، فناسبهم هذا اللفظ ، وتكرر على وجه التهديد ، والتعنيف لهم ، فهى حرف ردع وزجر .

فإن قيل : إن المدينة كان بها يهود ، وهم غلاظ القلوب أيضا ، فلماذا لم يذكر فى المدنى هذا اللفظ ؟ أجيب : إن هذا اللفظ لم يذكر فى المدنى على الرغم مما سبق لضعف اليهود وذلتهم .

٢ – كل سورة فيها سجدة فهى مكية ، وعدد السجدات في القرآن الكريم : أربع عشرة سجدة فى الأعراف ، والرعد ، والنحل ، والإسراء ، والفرقان ، والنمل ، وآلم تنزيل السجدة ، وفصلت ، والنجم ، وإذا السماء

(١) مباحث فى علوم القرآن لمناع القطان ٦١ .

انشقت ، واقرأ باسم ربك ، وفى ص ، يقول الإمام السيوطى عنها : إنها مستحبة ، وليست من عزائم السجود ، أى متأكداته ، .[1]

٣ – كل سورة بدأت بحروف التهجى ، وهى الحروف المقطعة فى أوائل السور فهى مكية ، وذلك لأن الحروف المقطعة كانت من باب التحدى للعرب ، وكان ذلك بمكة ، ويستثنى من هذا الضابط : سورتا البقرة ، وآل عمران فهما مدنيتان بالإجماع ، أما سورة الرعد ففيها خلاف بين العلماء . والأرجح أنها مكية .

٤ – كل سورة ذكر فيها قصص الأنبياء ، والأمم السابقة فهى مكية سوى سورتى البقرة وآل عمران .

٥ – كل سورة فيها قصة آدم وإبليس فهى مكية سوى سورة البقرة .

٦ – كل سورة فيها ﴿ يأيها الناس ﴾ وليس فيها ﴿ يأيها الذين ءامنوا ﴾ فهى مكية ، إلا سورة الحج ففى آخرها : ﴿ يأيها الذين ءامنوا اركعوا واسجدوا واعبدوا ربكم ﴾ ، وهذا الضابط فيه خلاف.[2]

٧ – كل سورة تبدأ بالقسم فهى مكية ، كالفجر ، والشمس ، والليل ، والضحى ، والذاريات ، وغير ذلك ؛ لأن القسم للتأكيد والإقناع ، ويكون ذلك للمشركين المعاندين .

٨ – أن توجد آيات مكررة فى السورة . كسورة القمر ، والرحمن ، والمرسلات .

---

(١) الإتقان ١٥١ .

(٢)المصدر السابق ٢٤-٢٥.

٩ - من علامات المكى أن نجد السجع القصير فى سوره طالبا للتأثير فى المعاندين ، وقرع أسماعهم ، كما فى سور (ن) و(المزمل) و(المدثر) .[1]

١٠ - ذكر الشيخ الزرقانى هذا الضابط ، وإن كان غير قياسى فى جميع السور ؛ إلا أنه قياسى فى الكثير الغالب يقول : « كل سورة من المفصل فهى مكية ، أخرج الطبرانى عن ابن مسعود - رضى الله عنه - قال : « نزل المفصل بمكة ، فمكثنا حججا نقرؤه ولا ينزل غيره » لكن يرد على هذا أن بعض سور المفصل مدنى ، نزل بعد الهجرة اتفاقا كسورة النصر ، فإنها كانت من أواخر ما نزل بعد الهجرة ، بل قيل إنها آخر ما نزل ، فالأولى أن يحمل كلام ابن مسعود هذا على الكثرة الغالبة من سور المفصل ، لا على جميع سور المفصل » .[2]

والمفصل من أول سورة (الحجرات) أو سورة (ق) إلى آخر سورة " الناس" .

ثانيا : ضوابط معرفة المدنى :

١ - كل سورة ذكرت فيها الحدود والفرائض والحقوق ، والقوانين المدنية والاجتماعية ، والدولية فهى مدنية[3] ، وذلك لأن العهد المكى يختلف عن العهد المدنى ، فقد كانت الدعوة فى العهد المكى هدفها تثبيت العقيدة ، من إيمان بالله وملائكته ، وكتبه ورسله ، واليوم الآخر ،

---

(١) انظر مباحث فى علوم القرآن لمناع القطان ٦٤ بتصرف .

(٢) مناهل العرفان ١٩٧/١ بتصرف . والحديث أخرجه الطبرانى فى الأوسط ٢٥٨/٦ .

(٣) مباحث فى علوم القرآن للدكتور صبحى الصالح ١٨٣ .

ودعوة منكرى البعث إلى الإيمان به ، بذكر الأدلة التى ساقتها آيات القرآن المكى على إمكانه ، أما العهد المدنى فقد أخذت الدعوة فيه صورة غير صورتها فى عهدها المكي ، فهى تخاطب مؤمنين ، استقرت أحوالهم ، وأصبحوا يعبدون الله فى أمن وطمأنينة ، فناسب ذلك أن تشرع الفرائض والحدود حتى يستقيم بناء الدولة الإسلامية .

يقول الإمام أبو زهرة : « ولم يكن فى الآيات المكية أحكام للمعاملات ، وإن كان فيها إشارات إلى المحرمات كالخمر والربا ، فقد قال تعالى – مشيرا إلى أن الخمر أمر غير حسن – : ﴿ ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكرا ورزقا حسنا إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون ﴾ [النحل : ٦٧] فإن هذا النص يشير إلى أن الخمر ليست أمرا حسنا ؛ لأنه سبحانه وتعالى جعلها مقابلة للأمر الحسن ، ولا يقابل الحسن إلا القبيح ، أو على الأقل الأمر غير الحسن . ولقد جاء أيضا فى سورة الروم ما يشير إلى أن الربا أمر غير مستحسن ، فقد قال تعالى – فى سور الروم – : ﴿ وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربو عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون ﴾ [الروم : ٣٩] .

وإن عدم وجود أحكام للمعاملات فى مكة سببه أن الدولة التى كانت قائمة كانت دولة شرك ، وأن من المستحيل أن تنفذ أحكام المعاملات الإسلامية فى ظلها ، وكان الاتجاه الأول إلى إخراجها من الشرك ، وإدخالها فى التوحيد أولا ، ثم من بعد ذلك تكون الدولة الإسلامية المنفذة ، ولكن الحرمات كانت ثابتة من أول تشريع الإسلام ،

وإن كان مسكوتا عنها ، فلم تكن موضع إباحة ، بل كانت موضع سكوت وعفو حتى ينزل التشريع بتحريمها تحريما قاطعا ، .[1]

٢ – كل سورة فيها إذن بالجهاد وبيان لأحكامه فهى مدنية ، وذلك لأن المسلمين في العهد المكي كانوا مستضعفين في قريش ، فلما أذن الله لهم بالهجرة إلى المدينة وأصبحوا في مأمن من أذى المشركين ، أذن لهم في جهاد الأعداء ، وبين لهم ما خفى عليهم من أحكام الفيء والغنيمة .

٣ – كل سورة فيها ذكر المنافقين فهي مدنية سوى العنكبوت ، فإن العلماء اختلفوا فيها ، والتحقيق أنها مكية [2] ، ما عدا الآيات الإحدى عشرة الأولى منها – وهي التي ذكر فيها المنافقون – فإنها مدنية ، وذلك لأن النفاق لم يظهر إلا في المدينة بعد أن قويت شوكة المسلمين ، فتظاهر المنافقون بحب الإسلام والمسلمين ، فكشف الله أمرهم ، وهتك سترهم ، حتى يكون الرسول والمسلمون على بينة بهم .

٤ – كل سورة ذكر فيها مناقشة أهل الكتاب فهى مدنية ، كسور البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والتوبة ، مثال ذلك قوله تعالى فى سورة التوبة : ﴿ وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ [التوبة : ٣٠] .

---

(١) المعجزة الكبرى ١٩ – ٢٠ .
(٢) انظر مناهل العرفان ١/١٩٨ .

٤ - فروق بين المكي والمدني

بعد ذكر ضوابط كل من المكي والمدني يمكننا أن نخلص إلى فروق بين كل المكي والمدني ، من ناحية الألفاظ ، ومن ناحية الموضوعات التي تتحدث فيها الآيات .

أولاً : من ناحية الألفاظ نلاحظ في المكي الإيجاز وقصر السور والآيات ، لأنه يخاطب أهل مكة ، وهم أساطين البلاغة والفصاحة فناسبهم الإيجاز وقصر السور ، وشدة في الألفاظ تقرع أسماعهم ، وتزجرهم ، وترد على عنفهم وقسوتهم . أما المدني فنلاحظ فيه الإطناب ، وطول السور والآيات ، وذلك لأن أهل المدينة لم يكونوا يضاهئون أهل مكة في الذكاء ، والفصاحة والبيان ، فناسبهم الإيضاح والشرح والبسط والتطويل .

ثانيا : أما من ناحية الموضوعات التي تتحدث عنها الآيات فإننا نجد في المكي :

١ - العناية بإثبات الوحدانية لله تعالى ، والرسالة للنبي - صلى الله عليه وسلم - والبعث والجزاء بوسيلة مقنعة لا تدع مجالا للشك فيما تحمله الآيات من قضايا .

٢ - إلى جانب إثبات العقيدة نجدها تعالج بعض العادات السيئة التي كانت منتشرة بين أهل مكة كالقتل ، ووأد البنات ، وأكل مال اليتيم وغير ذلك .

٣ - كما نجدها تهتم بقصص الرسل مع أقوامهم ، وبيان ما لحق

بالرسل وأتباعهم من أذى ، وما حل بالمكذبين من عقاب يرون أثره بأنفسهم ، وهم يغدون عليه ويروحون ، يقول الله تعالى فى سورة الصافات - بعد أن ذكر المكذبين وعقابهم - : ﴿ وإنكم لتمرون عليهم مصبحين ، وبالليل أفلا تعقلون ﴾ [الصافات : ١٣٧ - ١٣٨] وتأمر المشركين بالسير والنظر والاعتبار بما يرون يقول سبحانه وتعالى: ﴿ قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ [الأنعام : ١١] وهذه الآيات تلقى - بما تحمله فى طياتها - الخوف فى قلوب المعاندين، كما تنزل السكينة على قلوب المؤمنين المضطهدين ، حين يعلمون أن الله ينصر الحق وجنده ، فتهدأ ثورة نفوسهم ، ويستعذبون ما ينزل بهم ثقة فى عون الله ، وأملا فى مثوبته .

ونجد فى المدنى :

١ - بيان وتفصيل أحكام الشريعة ، والقوانين المدنية والحدود ، والقوانين الحربية والاجتماعية ، والحقوق الشخصية والمعاملات .

٢ - مجادلة أهل الكتاب ، ومناقشتهم فى عقائدهم الباطلة ودعوتهم إلى الإسلام ، وبيان جنايتهم على الحق ، وإنكارهم لنبوة المصطفى - صلى الله عليه وسلم - وهم يعرفون ذلك جيدا ، نظراً لما تحمله كتبهم من نعت رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وتبشيرها بنبوته - صلى الله عليه وسلم - .

٣ - هتك أستار المنافقين ، وكشف ما فعلوه فى خفاء عن أعين المسلمين ، وإنذارهم بالعذاب الشديد حتى يتركوا ما هم عليه من نفاق

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ إن المنافقين فى الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا ، إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما ﴾ [النساء: ١٤٥ – ١٤٦] . وغير ذلك من الآيات كما فى سورة التوبة وآل عمران وغيرهما .

٥ – السور المكية ، والسور المدنية ، والسور المختلف فيها

إن المتتبع لسور القرآن الكريم يجد أن السورة قد تكون مكية كلها ، وقد تكون مدنية كلها ، وقد تكون مكية ما عدا آيات منها ، وقد تكون مدنية ما عدا آيات منها ، وهذا متبع فى المصحف الذى بين أيدينا حيث يشير إلى ذلك فيقال : مكية أو مدنية أو مكية إلا آية كذا أو مدنية إلا آية كذا .

أما وصف السورة فيقول الشيخ الزرقانى فى ذلك : « واعلم أن وصف السورة بأنها مكية أو مدنية ، يكون تبعا لما يغلب عليها فيها ، أو تبعا لفاتحتها ، فقد ورد أنه إذا نزلت فاتحة سورة بمكة مثلا كتبت مكية، ثم يزيد الله فيها ما يشاء » .(١)

اختلف العلماء فى عدد السور المكية والمدنية والمختلف فى مكيتها أو مدنيتها على أقوال .

ذكر الإمام السيوطي فى الإتقان أقوالا مختلفة فى المكى والمدنى ، ثم ذكر قول أبى الحسن بن الحصار فى كتابه الناسخ والمنسوخ : المدنى

---

(١) مناهل العرفان ١/١٩٩ .

باتفاق عشرون سورة ، والمختلف فيه اثنتا عشرة سورة ، وما عدا ذلك فمكى باتفاق ، ثم نظم فى ذلك أبياتا ، وفيها يقول :

وبعد هجرة خير الناس قد نزلت   عشرون من سور القرآن فى عشر

وعد : البقرة ، وآل عمران ، والنساء ، والمائدة ، والأنفال ، والتوبة، والنور ، والأحزاب ، ومحمد ، والفتح ، والحجرات ، والحديد ، والمجادلة ، والحشر ، والممتحنة ، والجمعة ، والمنافقين ، والطلاق ، والتحريم ، والنصر .

ثم عد ما اختلفت الرواة فيه ، وعد اثنتى عشرة سورة ، وهى :

الفاتحة ، والرعد ، والرحمن ، والصف ، والتغابن ، والمطففين ، والقدر ، والبينة ، والزلزلة ، والإخلاص ، والمعوذتين .

ثم يقول :

وذا الذى اختلفت فيه الرواة له   وربما استثنيت آى من السور

ثم ذكر السور المكية المتفق على مكيتها فقال :

وما سوى ذاك مكى تنزلـه   فلا تكن من خلاف الناس فى حصر

فليس كل خلاف جاء معتبرا   إلا خـــلاف لـه حظ من النظـر [1]

يريد أن ما تبقى من السور وعددها اثنتان وثمانون سورة مكية النزول ثم يبين أن كل خلاف ليس له اعتبار إلا ما كان يدعو إلى التأمل والتفكير .

---

(١) انظر الإتقان للسيوطى ١٤ – ١٥ .

٦ - الشبه على المكى والمدنى

حاول أعداء الإسلام التشكيك فى الدين الإسلامى ، ولم يجدوا سلاحا لذلك إلا حرصهم على التشكيك فى نسبة القرآن إلى الله تعالى ، بنسبته إلى محمد - صلى الله عليه وسلم - وهم يهدفون من وراء ذلك إلى نقض بنيان الإسلام بشبههم ولو هز هزة خفيفة لتصدع خذا البناء، وتهاوى صرح الإسلام ، لكن الله سبحانه وتعالى تعهد بحفظ كتابه ، وإتمام نور نبيه وصدق ربنا - عز وجل - حيث يقول : ﴿ يريدون أن يطفئوا نور الله بأفواههم ويأبى الله إلا أن يتم نوره ولو كره الكافرون ﴾ [التوبة : ٣٢] .

وأساس هذه الشبه عندهم الاختلاف فى أسلوب القرآن المكى والمدنى ، والاختلاف فى موضوعات كل من المكى والمدنى ، وفى الحقيقة لا يعتبر هذا الاختلاف مطعنا على صحة نسبة القرآن إلى الله تعالى ، بل يعتبر دليلا قاطعا على نسبته إليه سبحانه ؛ لأن منزله هو الإله العليم بأحوال عباده ، الرحيم بهم حيث يوجههم إلى ما يصلحهم فى دنياهم وآخرتهم .

الشبهة الأولى :

يقول أعداء الإسلام فيها : إن المتأمل فى القرآن الكريم يجد فيه أسلوبين متباينين ، المكى زاخر بالعنف والشدة ، ملىء بالتهديد والقسوة، يلاحظ ذلك فى سورة التكاثر يقول تعالى : ﴿ كلا سوف تعلمون ، ثم كلا سوف تعلمون ، كلا لو تعلمون علم اليقين ، لترون الجحيم ، ثم لترونها عين اليقين ، ثم لتسألن يومئذ عن النعيم ﴾ [التكاثر: ٣ - ٨] ويقول فى سورة العلق : ﴿ كلا لئن لم ينته لنسفعا

بالناصية ، ناصية كاذبة خاطئة ، فليدع ناديه ، سندع الزبانية ، كلا لا تطعه واسجد واقترب ﴾ [العلق : ١٥ - ١٩] وغير ذلك .

أما المدنى فهو ملىء باللين ، والموعظة الحسنة كقوله تعالى : ﴿ قل يأهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله فإن تولوا فقولوا اشهدوا بأنا مسلمون ﴾ [آل عمران : ٦٤] وغير ذلك .

تفنيد هذه الشبهة : قالوا إن محمدا تأثر بالوسط الذى عاش فيه ، فلما كان فى مكة وسط قوم يتسمون بالعنف والقسوة ، جاء كلامه عنيفا ، ولما انتقل إلى المدينة بين قوم أرقاء القلوب ، جاء كلامه لينا هادئا .

الهدف من هذه الشبهة : إثبات أن القرآن كلام محمد - صلى الله عليه وسلم - وليس كلام الله تعالى . وهذه الشبهة ساقطة من أساسها، باطلة بينة البطلان .

ويرد عليها بما يلى :

أولا : إن انفراد المكى بالشدة والعنف دعوى باطلة ، ينقضها ما فى سور وآيات القرآن الكريم المدنية - من عنف وشدة ، يقول الله تعالى فى سورة البقرة المدنية : ﴿ فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ [البقرة : ٢٤] ، وغير ذلك من الآيات التى تبطل دعوى انفراد المكى بالشدة والعنف .

ثانيا : إن انفراد المدنى باللين والموعظة الحسنة دعوى باطلة ، ينقضها ما فى سور وآيات القرآن الكريم المكية من لين ، يقول الله تعالى فى سورة فصلت - وهى مكية : ﴿ ومن أحسن قولا ممن دعا إلى الله وعمل صالحا وقال إننى من المسلمين ، ولا تستوى الحسنة ولا السيئة ادفع بالتى هى أحسن فإذا الذى بينك وبينه عداوة كأنه ولى حميم ، وما يلقاها إلا الذين صبروا وما يلقاها إلا ذو حظ عظيم ﴾ [فصلت : ٣٣-٣٥] وقوله فى سورة الشورى - وهى مكية أيضا - : ﴿ والذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش وإذا ما غضبوا هم يغفرون ، والذين استجابوا لربهم وأقاموا الصلاة وأمرهم شورى بينهم ومما رزقناهم ينفقون ، والذين إذا أصابهم البغى هم ينتصرون ، وجزاء سيئة سيئة مثلها فمن عفا وأصلح فأجره على الله إنه لا يحب الظالمين ﴾ [الشورى : ٣٧-٤٠] وغير ذلك من الآيات التى تبطل دعوى انفراد المدنى باللين .

ثالثا : لو سلمنا جدلا بغلبة أسلوب الشدة فى المكى ، واللين فى المدنى فليس معنى ذلك أنه راجع إلى تأثر محمد - صلى الله عليه وسلم- بالوسط الذى عاش فيه ، لأن القرآن كلام الله تعالى ، وليس لمحمد ولا لغير محمد دخل فيه ، ومرجعه الحقيقى اختلاف حال المخاطبين ، وذلك ضرب من ضروب البلاغة ، فهى مراعاة الكلام لمقتضى حال المخاطب .

الشبهة الثانية : يقولون : إن المتأمل فى سور القرآن الكريم وآياته ، يجد انقطاعا بين السور المكية والسور المدنية ، وسبب هذا الانقطاع طول السور المدنية وآياتها ، وقصر السور المكية وآياتها .

تفنيد هذه الشبهة : يزعمون أن محمدا - صلى الله عليه وسلم - الأمي لما كان مبتدئا قصرت فقرات الكلام ، وانحصرت حدود السور ، ولما هاجر إلى المدينة، واختلط بأهل الكتاب اتسع خياله ، وانبسط كلامه فجاءت الآيات والسور طويلة .

الهدف من هذه الشبهة : إثبات أن القرآن كلام محمد - صلى الله عليه وسلم - وليس من عند الله تعالى . وهذه الشبهة ظاهرة البطلان .

ويرد عليها بما يلي :

أولا : إن دعوى انفراد المدني بالسور الطويلة ظاهر البطلان ، ينقضه ما في كتاب الله تعالى ، فسورة ﴿ إذا جاء نصر الله والفتح ﴾ مدنية باتفاق العلماء ، وعلى الرغم من ذلك فهي من السور القصيرة ، إذن المدني يشتمل على السور الطويلة ، والسور القصيرة ، وإن كان الغالب السور الطويلة .

ثانيا : إن دعوى انفراد المكي بالسور القصيرة ظاهر البطلان أيضا، فنجد بين السور المكية سورتي الأنعام والأعراف وهما من السبع الطوال ، ويونس وهود ويوسف والنحل والكهف وغير ذلك مما ليس من السور القصيرة ، وعليه فإن المكي أيضا فيه السور الطويلة والسور القصيرة . فدل ذلك على بطلان هذه الدعوى .

ثالثا : إن ما زعموه من وجود انقطاع بين السور المكية والسور

المدنية ، نتيجة قصر السور المكية ، وطول السور المدنية زعم باطل لا أساس له من الصحة ، فكلنا نقرأ كتاب الله تعالى ولا نحس فيه انقطاعا ، بل نحس أنه وحدة متكاملة ، وسورة مترابطة ، فكل سورة لها مناسبة لما قبلها وما بعدها سواء أكانت مكية أم مدنية ، كما أننا نعلم أن بين بعض السور المكية آيات مدنية، وبين بعض السور المدنية آيات مكية ولايحس أحد بانقطاع عند قراءتها ، كما أن قارئ القرآن إن لم يكن على علم بالمكى والمدنى ، فإنه لا يستطيع التفريق بينهما ؛ وذلك لأن القرآن الكريم نزل دفعة واحدة إلى سماء الدنيا ، فكل من يتدبر كتاب الله تعالى يروعه ما بين جميع السور والآيات من جلال الوحدة ، وكمال الاتصال، وجمال التناسق الذى يأخذ بالألباب .

رابعا : لو سلمنا لهم ما قالوه من قصر السور المكية وآياتها ، وطول السور المدنية وآياتها ، أفلا يكون هذا من باب مراعاة حال المخاطبين ، واختيار ما يليق بهم من أساليب الخطاب ؟!

إن أهل مكة كانوا فى الذروة فى الفصاحة فناسبهم الإيجاز فى العبارة ، أما أهل المدينة فلم يكونوا فى درجة القرشيين – برغم علومهم وحضارتهم – فناسبهم الإطناب والبسط .

الشبهة الثالثة : يقولون : إن القسم المكى خلا من التشريع والأحكام ، أما القسم المدنى فإنه شحن بالتشريع والأحكام ، وهذا يدل على أن القرآن من وضع محمد – صلى الله عليه وسلم – .

تفنيد هذه الشبهة : زعموا أن محمدا – صلى الله عليه وسلم – كان يتأثر بالوسط الذى يعيش فيه ، فحين كان محمد بمكة بين الأميين جاء قرآنه خاليا من العلوم ، والمعارف ، ولما حل بين أهل الكتاب المثقفين جاء القرآن المدني مليئا بالأحكام والمعارف"(1).

الهدف من هذه الشبهة : كسابقتيها إثبات أن القرآن الكريم كلام محمد – صلى الله عليه وسلم – وليس من عند الله تعالى . وهذه الشبهة أيضا ظاهرة البطلان .

ويرد عليها بما يأتى :

أولا : إن ما زعموه من أن القسم المكى خلا من التشريع والأحكام جملة زعم باطل ينقضه ما فى سورة الأنعام – المكية – من وصايا عشر ، فى قوله تعالى : ﴿ قل تعالوا أتل ما حرم ربكم عليكم ألا تشركوا به شيئا وبالوالدين إحسانا ولا تقتلوا أولادكم من إملاق نحن نرزقكم وإياهم ولا تقربوا الفواحش ما ظهر منها وما بطن ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ ذلكم وصاكم به لعلكم تتقون ﴾ [الأنعام : ١٥١–١٥٣] وهذه الآيات تحمل مقاصد الدين الخمسة وهى : ١– الإيمان الكامل بالله . ٢– حفظ النفس . ٣– حفظ العقل . ٤– حفظ النسل . ٥– حفظ المال . لكنها عرضت هذه المقاصد بطريقة إجمالية .

ثانيا : إن كثرة التفاصيل فى تشريع الأحكام بالمدينة – على عكس ما كان بمكة – كان من باب التدرج فى التشريع ، وحسن سياسة الأمم وقيادتها نحو الرفعة ، والتقدم ، والفضيلة ، فالتدرج حليفه النجاح والتوفيق .

---

(1) أنظر مناهل العرفان ١/٢١٨.

ولقد بدأ الله عباده فى مكة بما هو أهم ، حين بدأ بإصلاح العقيدة ؛ فهى أساس دين الإسلام ، فلما ثبتت أسس العقيدة بمكة استكمل البناء بتشريع الأحكام ، وبيان تفاصيلها ، وكان ذلك فى المدينة بعد هجرة المسلمين ، وبعدهم عن إيذاء المشركين ، وهكذا أتم الله نعمته ، وأكمل دينه الذى ارتضاه لنا .

ولم يقتصر الأمر على هذه الشبهات ، فهناك فيض من الافتراضات الباطلة ، يريدون منها الكيد للإسلام ، وإطفاء نور الله ، لكن الله - عز وجل - قيض لدينه وقرآنه علماء أجلاء ، يذودون عن حياضه ، ويدحضون به كل باطل فجزاهم الله عن الإسلام وأهله خير الجزاء .

خامسا : أسباب النزول

تمهيد : إذا تأملنا آيات القرآن الكريم نجدها قسمين :

القسم الأول : آيات نزلت من الله تعالى ابتداءً ، من غير أن ترتبط بحادثة معينة ، أو بسبب من الأسباب ، وهذا القسم الهدف منه هداية الناس إلى الطريق الصحيح ، وتوجيههم إلى مبادئ الإسلام ، وهو لا يحتاج إلى بيان لوضوحه ، وظهور ما يهدف إليه .

ومن هذا القسم : الحديث عن الأمم السابقة وما حل بهم ، أو وصف الجنة والنار .

القسم الثانى : آيات نزلت لسبب من الأسباب الخاصة ، كحدوث شيء ، أو سؤال عن شيء ، فهى مرتبطة بحوادث وظروف معينة ، وهى التى تعرف فى علوم القرآن باسم (أسباب النزول) وهى موضوع هذا البحث .

ولقد تعرض كثير من المفسرين لهذا الموضوع ضمن تفسيرهم لكتاب الله تعالى ، فعندما يفسرون آية يذكرون وجه ارتباطها بما قبلها ، ثم يذكرون سبب نزولها إذا كانت مرتبطة بسبب من الأسباب .

وبلغ الاهتمام بهذا الموضوع درجة كبيرة ، حيث أفرده بعض العلماء بالتأليف ، باسم (أسباب النزول) ، ومن هؤلاء العلماء : « على ابن المدينى » شيخ البخارى ، و« الجعبرى » ، و« ابن حجر » و«السيوطى» الذى ألف كتابا سماه « لباب النقول فى أسباب النزول » .

١ – معنى سبب النزول :

السبب مفرد أسباب ، وهو فى اللغة : كل شيء يتوصل به إلى

غيره، وقد تسبب إليه [1] وفى الإصطلاح : هو ما نزلت الآية أو الآيات أو السورة متحدثة عنه أو مبينة لحكمه أيام وقوعه". [2]

شرح التعريف : قد تنزل الآية ، أو الآيات ، أو السورة القصيرة بسبب حادثة وقعت ، أو سؤال وجه لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فتأتى الآيات مبينة ما يتصل بهذه الحادثة أو مجيبة عن هذا السؤال .

والحادثة تكون :

١ - خصومة وقعت بين فريقين كالتى دبت بين الأوس والخزرج بسبب وقيعة اليهود بينهما ، مما أدى إلى تنادي الفريقين : السلاح السلاح ، فنزلت بسبب هذه الخصومة الآيات من سورة « آل عمران » تحذر المؤمنين من الشقاق والنزاع ، وتدعوهم إلى الاعتصام بدين الإسلام ، وتذكرهم بفضل الله عليهم حين جمع بالإسلام قلوبهم بعد أن كانت متفرقة متنافرة ، وحل فيها الحب بدل العداوة والبغضاء ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ يأيها الذين آمنوا إن تطيعوا فريقا من الذين أوتوا الكتاب يردوكم بعد إيمانكم كافرين ، .... ﴾ إلى آخر الآيات .[3]

٢ - أو تكون خطأ وقع ، فتنزل الآية لتصحيح هذا الخطأ ، روى الإمام الترمذى بسنده عن على بن أبى طالب - رضى الله عنه وكرم الله وجهه - قال : صنع لنا عبد الرحمن بن عوف طعاما فدعانا وسقانا من الخمر ، فأخذت الخمر منا ، وحضرت الصلاة فقدمونى فقرأت : ﴿ قل يأيها الكافرون ، لا أعبد ما تعبدون ﴾ ونحن نعبد

---

(١) لسان العرب ٤٥٨/١ مادة سبب .
(٢) أنظر مناهل العرفان١٠٦/١.
(٣) أنظر أسباب النزول للواحدى ٨٤ ومابعدها.

ما تعبدون . قال : فأنزل الله تعالى : ﴿ يأيها الذين ءامنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون ﴾ .[1]

لقد كانت الخمر مباحة ، لكنها عملت فى العقول حتى إن الإمام عليا زاد : ونحن نعبد ما تعبدون كما ذكرت الرواية ، فنزلت الآية تصحح هذا الخطأ ، وتنهى المسلم أن يقرب الصلاة وهو سكران حتى يفيق من سكره ، وكان هذا النهى مرحلة من مراحل التدرج فى تحريم الخمر .

٣ – أو تكون الحادثة رمى برىء ، فتجىء الآيات تبرىء المتهم ، وتبين الفاعل الحقيقى ، أو تبرىء المتهم فقط . مثال ذلك ما رواه الإمام الواحدى فى أسباب نزول قول الله تعالى : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق لتحكم بين الناس بما أراك الله ولا تكن للخائنين خصيما ﴾ . إلى قوله تعالى : ﴿ ومن يشرك بالله فقد ضل ضلالا بعيدا ﴾ [النساء : ١٠٥ – ١١٦] يقول : « أنزلت كلها فى قصة واحدة ، وذلك أن رجلا من الأنصار يقال له طعمة بن أبيرق أحد بنى ظفر بن الحرث سرق درعا من جار له يقال له قتادة بن النعمان ، وكانت الدرع فى جراب فيه دقيق ، فجعل الدقيق ينتثر من خرق فى الجراب حتى انتهى إلى الدار – وفيها أثر الدقيق – ثم خبأها عند رجل من اليهود يقال له زيد بن السمين ، فالتمست الدرع عند طعمه فلم توجد عنده ، وحلف لهم : والله ما أخذها وما له بها من علم ، فقال أصحاب الدرع : بلى . والله قد أدلج علينا فأخذها ، وطلبنا أثره حتى دخل داره فرأينا أثر الدقيق ، فلما أن حلف

---

(١) سنن الترمذى ٥/٢٣٨ ك التفسير باب ٥ وقال : حديث حسن صحيح غريب .

تركوه ، واتبعوا أثر الدقيق حتى انتهوا إلى منزل اليهودى فأخذوه ، فقال: دفعها إلى طعمة ، وشهد له أناس من اليهود على ذلك ، فقالت بنو ظفر – وهم قوم طعمة – : أنطلقوا بنا إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فكلموه في ذلك ، فسألوه أن يجادل عن صاحبهم ، وقالوا : إن لم تفعل هلك صاحبنا وافتضح وبرئ اليهودى ، فهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن يفعل ، وكان هواه معهم ، وأن يعاقب اليهودى حتى أنزل الله تعالى : ﴿ إنا أنزلنا إليك الكتاب بالحق ﴾ الآية كلها ، .[1]

ويرى جماعة من المفسرين أنه لم يكن طعمة وكان اسمه بشير من بنى أبيرق ، والمهم فى هذه القصة أنها برأت المتهم ، وبينت الفاعل الحقيقى .

أما ما نزل من كتاب الله تعالى يبرئ المتهم فقط فمثاله ما نزل فى حديث الإفك فى سورة النور ، فإن الآيات نزلت تظهر براءة السيدة عائشة – رضى الله عنها – وبراءة صفوان بن المعطل .

٤ – أو تكون الحادثة فعل ما يوجب الحد ، فتنزل الآيات لبيان حكم شرعي جديد .

مثال ذلك : ما رواه الإمام البخارى بسنده فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ﴾ [النور : ٦] إلى قوله تعالى: ﴿ وأن الله تواب حكيم ﴾ .

---

(١) أسباب النزول للواحدى ١٣٤ .

روى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبي – صلى الله عليه وسلم – بشريك بن سحماء ، فقال النبي – صلى الله عليه وسلم – : « البينة أو حد فى ظهرك » فقال : يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة ؟ فجعل النبي صلى الله عليه وسلم – يقول : « البينة وإلا حد في ظهرك » فقال هلال : والذى بعثك بالحق إنى لصادق فلينزلن الله ما يبرئ ظهرى من الحد ، فنزل جبريل وأنزل عليه : ﴿ والذين يرمون أزواجهم .... ﴾ [(١)] إلى آخر الحديث .

فكانت شكوى هلال لرسول الله موجبة لحد القذف ، ثم نزلت الآيات بحكم جديد هو اللعان لمن رأى زوجته تزنى ولم يكن له شهداء كما بينت الآيات .

٥ – أو تكون الحادثة أمرا موجبا لحكم كان فى الجاهلية فتنزل الآيات مبطلة لهذا الحكم ، مبينة حكما جديدا .

مثال ذلك ما رواه الإمام السيوطى فى أسباب النزول ، عن عائشة – رضى الله عنها – قالت : تبارك الذى وسع سمعه كل شىء ، إنى لأسمع كلام خولة بنت ثعلبة ، ويخفى علىّ بعضه وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وتقول : يا رسول الله أكل شبابى، ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبرت سنى ، وانقطع ولدى ظاهر منى ، اللهم إنى أشكو إليك ، فما برحت حتى نزل جبريل بهذه الآيات : ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها ﴾ وهو أوس بن الصامت [(٢)] .

---

(١) صحيح البخارى ١٦٢/٣ ك التفسير باب سورة النور .

(٢) لباب النقول فى أسباب النزول ٣٩٦ – ٣٩٧ .

فكانت الحادثة هي : وقوع الظهار من أوس بن الصامت على زوجته خولة بنت ثعلبة وكان الظهار نوعا من الطلاق في الجاهلية ، فلما شكت أمرها إلى الله نزلت الآيات تبين حكما لم يكن من قبل وهو كفارة الظهار .

٦ – أو تكون الحادثة تمنيا ورغبة في أمر من الأمور ، كموافقات عمر – رضى الله عنه – أخرج الإمام البخارى فى صحيحه حديثا يبين فيه هذه الموافقات ، يقول : قال عمر : « وافقت الله في ثلاث . قلت : يا رسول الله . لو اتخذت مقام إبراهيم مصلى ، وقلت : يا رسول الله يدخل عليك البر والفاجر ، فلو أمرت أمهات المؤمنين بالحجاب ، فأنزل الله آية الحجاب ، قال : وبلغنى معاتبة النبى – صلى الله عليه وسلم – بعض نسائه فدخلت عليهن قلت : إن انتهيتن أو ليبدلن الله رسوله – صلى الله عليه وسلم – خيرا منكن ، حتى أتيت إحدى نسائه قالت : يا عمر أما فى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ما يعظ نساءه حتى تعظهن أنت؟ فأنزل الله : ﴿ عسى ربه إن طلقكن أن يبدله أزواجا خيرا منكن مسلمات ... ﴾ الآية [١] فعمر تمنى هذه الأشياء فنزلت الآيات تحقق تمنيات عمر – رضى الله عنه – .

والسؤال الذى يوجه إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ونزلت الآية أو الآيات جوابا عنه يكون :

١ – متصلا بأمر مضى كالسؤال عن ذى القرنين ، ذكر الإمام السيوطى فى أسباب النزول عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال :

---

(١) صحيح البخارى ٣/٩٩ ك التفسير ، سورة البقرة .

بعثت قريش النضر بن الحارث وعقبة بن أبى معيط إلى أحبار اليهود بالمدينة ، فقالوا لهم : سلوهم عن محمد ، وصفوا لهم صفته ، وأخبروهم بقوله فإنهم أهل الكتاب الأول ، وعندهم ما ليس عندنا من علم الأنبياء، فخرجا حتى أتيا المدينة ، فسألوا أحبار اليهود عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – ووصفوا لهم أمره وبعض قوله ، فقالوا لهم : سلوه عن ثلاث فإن أخبركم بهن فهو نبى مرسل ، وإن لم يفعل فالرجل متقول ، سلوه عن فتية ذهبوا فى الدهر الأول ما كان أمرهم فإنه كان لهم أمر عجيب ، وسلوه عن رجل طواف بلغ مشارق الأرض ومغاربها ما كان نبؤه ، وسلوه عن الروح ما هو ؟ فأقبلا حتى قدما على قريش ..... " إلى آخر الرواية [1] وفيها : ثم جاءه جبريل من الله بسورة أصحاب الكهف فيها معاتبته إياه على حزنه عليهم ، وخبر ما سألوه عنه من أمر الفتية والرجل الطواف .

٢ – أو متصلا بحاضر كالسؤال عن الروح . روى البخارى بسنده عن عبد الله بن مسعود – رضى الله عنه – قال : بينا أنا مع النبى – صلى الله عليه وسلم – فى حرث وهو متكئ على عسيب إذ مر اليهود فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، فقال ما رابكم إليه ، وقال بعضهم : لا يستقبلكم بشىء تكرهونه ، فقالوا : سلوه ، فسألوه عن الروح فأمسك النبى – صلى الله عليه وسلم – فلم يرد عليهم شيئا ، فعلمت أنه يوحى إليه ، فقمت مقامى ، فلما نزل الوحى قال : ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ، [2]

---

(١) لباب النقول ٢٥٩ – ٢٦١ .

(٢) صحيح البخارى ٣/١٥١ –١٥٢ ك التفسير ، سورة بنى إسرائيل .

٣ – أو متصلا بمستقبل كالسؤال عن الساعة . ذكر الإمام السيوطى فى الدر المنثور بسند فيه ضعف سبب نزول قوله تعالى : ﴿ يسألونك عن الساعة أيان مرساها ، فيم أنت من ذكراها ، إلى ربك منتهاها ﴾ [النازعات : ٤٢ – ٤٤] أن مشركى مكة سألوا النبى – صلى الله عليه وسلم – فقالوا : متى تقوم الساعة ؟ استهزاء منهم ، فأنزل الله : ﴿ يسألونك عن الساعة .... ﴾ .[1]

٤ – أو لبيان حكم خفى عن الناس ، كالسؤال عن الأنفال ، والسؤال عن القتال فى الشهر الحرام ، والسؤال عن اليتامى ، وغير ذلك مما فى كتاب الله تعالى .

وكلمة (أيام وقوعه) تبين أن المراد الظروف التى ينزل القرآن فيها متحدثا عن ذلك السبب ، سواء أوقع هذا النزول عقب سببه مباشرة ، أم تأخر عنه مدة لحكمة من الحكم ، كما حدث حين سألت قريش رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن الروح وأصحاب الكهف وذى القرنين فقال : « غدا أخبركم » ولم يستثن أى لم يقل (إلا أن يشاء الله) فأبطأ عليه الوحى مدة – اختلف فيها – حتى تألم الرسول – صلى الله عليه وسلم – لذلك ، ثم نزلت عليه أجوبة الأسئلة وفيها يرشد الله رسوله إلى أدب الاستثناء بالمشيئة »[2] .

وكلمة (أيام وقوعه) قيد فى التعريف يخرج ما نزل من الله ابتداء من غير سبب كما ذكرت أولا .

---

(١) الدر المنثور ٣١٤/٦ .
(٢) مناهل العرفان ١٠٨/١ بتصرف .

٢ - كيف تعرف أسباب النزول ؟

يقول الإمام الواحدى فى أسباب النزول : « ولا يحل القول فى أسباب نزول الكتاب إلا بالرواية والسماع ممن شاهدوا التنزيل ، ووقفوا على الأسباب ، وبحثوا عن علمها وجدوا فى الطلاب » ؛ لأن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - نهى أصحابه أن يقولوا عنه بغير علم ، وحذرهم من الكذب عليه ، عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « اتقوا الحديث إلا ما علمتم ، فإنه من كذب علىّ متعمدا فليتبوأ مقعده من النار ، ومن كذب على القرآن من غير علم فليتبوأ مقعده من النار » .[١]

وعليه فإنه لا يعرف سبب النزول إلا بالنقل الصحيح عن الصحابة الذين عاشوا زمن نزول الآية واطلعوا على ظروفها وملابساتها .

فإن روى سبب النزول عن صحابى فهو مقبول ، وإن لم يتقوّ برواية أخرى ؛ لأن قول الصحابى فيما لا مجال للاجتهاد فيه حكمه حكم المرفوع إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - أما إذا روى السبب بحديث مرسل أى سقط من سنده الصحابى وانتهى إلى التابعى ، فإنه لا يقبل إلا إذا صح السند إليه ، واعتضد بمرسل آخر ، وكان الراوى له من أئمة التفسير الآخذين عن الصحابة كمجاهد ، وعكرمة ، وسعيد بن جبير » .[٢]

---

(١) أسباب النزول للواحدى ٣ - ٤ بتصرف .

(٢) الإتقان ٤٤ بتصرف يسير .

٣ – صيغة سبب النزول :

الأساليب الدالة على سبب النزول قسمان :

قسم لا يحتمل غير سبب النزول ، وهذه الصيغة تكون نصا صريحا في السببية ، وصيغتها أن يقال : سبب نزول هذه الآية كذا ، أو أن تدخل فاء التعقيب على مادة نزل ، بعد ذكر الحادثة ، أو السؤال الذى طرح على رسول الله – صلى الله عليه وسلم – كأن يقال : حدث كذا فنزلت آية كذا ، أو سئل النبى – صلى الله عليه وسلم – فنزلت آية كذا . فهاتان الصيغتان صريحتان ، يفهم منهما سبب النزول لا غير .

مثال ذلك :

١ – ما رواه الواحدى فى أسباب النزول بسنده عن مجاهد قال : قالت أم سلمة – رضى الله عنها – : يا رسول الله تغزو الرجال ولا نغزو، وإنما لنا نصف الميراث ، فأنزل الله تعالى : ﴿ ولا تتمنوا ما فضل الله به بعضكم على بعض ﴾ .[1]

٢ – وما رواه الإمام السيوطى فى أسباب النزول قال : أخرج ابن أبى حاتم من طريق العوفى عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : « سأل الناس رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن الأهلة ، فنزلت هذه الآية : ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج ... ﴾ [2] [البقرة : ١٨٩] .

القسم الثانى : ما يحتمل سبب النزول وأمراً آخر غير السبب ، يتصل بالآية كتفسير المعنى ، أو بيان الأحكام التى تضمنتها الآية ، وهذه الصيغة غير صريحة فى بيان السببية ، وصيغتها أن يقال : نزلت

---

(١) أسباب النزول ١١٠ .

(٢) لباب النقول ٤٢ .

هذه الآية فى كذا ، أو إذا قال الرواى : أحسب هذه الآية نزلت فى كذا ، أو ما أحسب هذه الآية نزلت إلا فى كذا . فإن هذه الصيغ - أى التى فى القسم الثانى - تحتمل السببية وغيرها .

مثال ذلك :

١ - ما رواه الإمام ابن كثير فى سبب نزول قوله تعالى ﴿ أذن للذين يقاتلون .... ﴾ [الحج : ٣٩] : « قال العوفى عن ابن عباس نزلت فى محمد وأصحابه حين أخرجوا من مكة ، وقال مجاهد والضحاك وغير واحد من السلف كابن عباس وعروة بن الزبير وغيرهم : هذه أول آية نزلت فى الجهاد » .[1]

٢ - روى الإمام البخارى بسنده عن عروة عن عبد الله بن الزبير أنه حدثه أن رجلا من الأنصار خاصم الزبير عند النبى - صلى الله عليه وسلم - فى شِراجِ[2] الحرَّة التى يسقون بها النخل ، فقال الأنصارى: سرِّح الماء يمر فأبى عليه فاختصما عند النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - للزبير : « اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك » ، فغضب الأنصارى فقال : أن كان ابن عمتك ؟! فتلون وجه النبى - صلى الله عليه وسلم - ثم قال : « اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجِذْر » - وهو أصل الحائط أو أصول الشجر - فقال الزبير: والله إنى لأحسب هذه الآية نزلت فى ذلك: ﴿ فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم .... ﴾ [الآية ٦٥ من سورة النساء] .[3]

---

(١) تفسير ابن كثير ٣/٢٢٥ .
(٢) جمع شرج وهو مسيل ماء من الحرة إلى السهل . القاموس المحيط ١/٢٠٢ .
(٣) صحيح البخارى ٢/٥١-٥٢ ك المساقاة باب سكر الأنهار .

يقول الإمام القرطبى : « قال مجاهد وغيره : المراد بهذه الآية من تقدم ذكره ممن أراد التحاكم إلى الطاغوت ، وفيهم نزلت ، وقالت طائفة : نزلت فى الزبير مع الأنصارى ، وكانت الخصومة فى سقى بستان ، واختار الطبرى أن يكون نزول الآية فى المنافق واليهودى كما قال مجاهد ، ثم تتناولها بعمومها قصة الزبير » .[1]

وهكذا اتضح بالأمثلة الصريح وغير الصريح من صيغ أسباب النزول .

٤ - الحكم إذا تعددت الروايات فى سبب النزول :

قد تتعدد الروايات فى سبب نزول آية واحدة ، لكن هذه الروايات تختلف من حيث نصها على السببية أو عدم نصها ، ومن حيث درجتها، ومن حيث وجود المرجح وعدم وجوده ، ولكل حالة حكمها يتضح فيما يلى :

١ - إذا وردت عبارتان فى موضوع واحد ، إحداهما نص فى السببية لنزول آية أو آيات ، والثانية ليست نصا فى السببية لنزول تلك الآية أو الآيات ، فإننا نأخذ فى السببية بما هو نص ، ونحمل الأخرى على أنها بيان لمدلول الآية ؛ لأن النص أقوى فى الدلالة من المحتمل . مثال ذلك ما ورد فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ [البقرة : ٢٢٣] روى الإمام ابن جرير فى جامع البيان عن نافع قال : كان ابن عمر إذا قرئ القرآن لم يتكلم ، قال . فقرأت ذات يوم هذه الآية : ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ فقال:

---

(١) تفسير القرطبى ٥/٢٦٧ - ٢٦٨ بتصرف .

أتدرى فيمن نزلت هذه الآية ؟ قلت : لا . قال : نزلت فى إتيان النساء فى أدبارهن . وروى بسنده عن محمد بن المنكدر قال : سمعت جابرا يقول : إن اليهود كانوا يقولون إذا جامع الرجل أهله فى فرجها من ورائها كان ولده أحول ، فأنزل الله تعالي ذكره : ﴿ نساؤكم حرث لكم فأتوا حرثكم أنى شئتم ﴾ [1] فالرواية الأولي ليست نصا فى السببية وهى رواية نافع ، أما الرواية الثانية وهى رواية جابر بن عبد الله فهى نص فى السببية ، لذلك فإننا نأخذ بها ، ونحمل رواية نافع على أنها بيان لمدلول الآية .

٢ - إذا كان الاختلاف دائرا بين عبارتين أو عبارات ليس شئ منها نصا ، وكان اللفظ يتناولهما ، ولا قرينة تصرف إحداهما إلى السببية فإن الروايتين كلتيهما تحملان على بيان ما يتناوله من المدلولات ولا وجه لحملهما على السبب » .[2]

مثال ذلك ما رواه الإمام القرطبى فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ومن الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام ﴾ [البقرة : ٢٠٤] يقول : « قال السدى وغيره من المفسرين : نزلت فى الأخنس بن شريق ، وقال ابن عباس : نزلت فى قوم من المنافقين تكلموا فى الذين قتلوا فى غزوة الرجيع : عاصم بن ثابت ، وخبيب وغيرهم ؛ وقالوا : ويح هؤلاء القوم ، لا هم قعدوا فى بيوتهم ، ولا هم أدوا رسالة صاحبهم فنزلت هذه الآية فى صفات المنافقين » .[3]

---

(١) جامع البيان ٢/٢٣٣ وما بعدها بتصرف .
(٢) مناهل العرفان ١/١١٦ .
(٣) تفسير القرطبى ٣/١٧-١٨ .

٣ – إذا كان الاختلاف دائرا بين روايتين أو روايات كلها نص فى السببية فى نازل واحد من القرآن ، وذكرت كل رواية سببا صريحا غير ما تذكره الأخرى ننظر فيهما .

فإن كانت : أ- إحدى الروايتين صحيحة ، والأخرى غير صحيحة، فإننا نعتمد على الصحيحة فى بيان السبب ، ونرد الأخرى .

مثال ذلك :ما رواه الشيخان وغيرهما فى سبب نزول قوله تعالى : ﴿ والضحى والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ﴾ عن جندب بن سفيان – رضى الله عنه – قال : اشتكى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فلم يقم ليلتين أو ثلاثا ، فجاءت امرأة فقالت : يا محمد إنى لأرجو أن يكون شيطانك قد تركك ، لم أره قربك منذ ليلتين أو ثلاثا ، فأنزل الله – عز وجل – : ﴿ والضحى والليل إذا سجى ، ما ودعك ربك وما قلى ﴾ [1] [الضحى : ١-٣] .

وأخرج الطبرانى وابن أبى شيبة عن حفص بن ميسرة ، عن أمه ، عن أمها – وكانت خادم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : أن جروا دخل بيت النبى – صلى الله عليه وسلم – فدخل تحت السرير فمات ، فمكث النبى – صلى الله عليه وسلم – أربعة أيام لا ينزل عليه الوحى ، فقال : يا خولة ما حدث في بيت رسول الله ؟ جبريل لا يأتينى ، فقلت فى نفسى : لو هيئت البيت وكنسته ! فأهويت بالمكنسة تحت السرير ، فأخرجت الجرو ، فجاء النبى – صلى الله عليه وسلم – ترعد لحيته – وكان إذا نزل عليه الوحى أخذته الرعدة – فأنزل الله – عز وجل –

(١) صحيح البخارى ٣/٢١٧ ك التفسير سورة والضحى .

(والضحى) إلى قوله (فترضى) . وقال ابن حجر فى شرح البخارى : قصة إبطاء جبريل بسبب الجرو مشهورة ، لكن كونها سبب نزول الآية غريب ، وفى إسناده من لا يعرف ، فالمعتمد ما فى الصحيح ،.[1]

ب – إذا تساوى الإسنادان فى الصحة ولكن لرواية منهما مرجح دون الأخرى ، كحضور القصة مثلا فإننا نأخذ فى بيان السبب بالراجحة دون الأخرى ، مثاله ما أخرجه البخارى عن ابن مسعود قال : بينا أنا مع النبى – صلى الله عليه وسلم – فى حرث وهو متكئ على عسيب إذ مر اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح فقال : ما رابكم إليه . وقال بعضهم لا يستقبلكم بشيء تكرهونه ، فقالوا : سلوه فسألوه عن الروح فأمسك النبى – صلى الله عليه وسلم – فلم يرد عليهم شيئا ، فعلمت أنه يوحى إليه ، فقمت مقامى ، فلما نزل الوحى قال : ﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيتم من العلم إلا قليلا ﴾[2] [الإسراء : ٨٥] .

وأخرج الترمذى وصححه عن ابن عباس – رضى الله عنهما – قال : قالت قريش لليهود : أعطونا شيئا نسأل هذا الرجل ، فقالوا : اسألوه عن الروح ، فسألوه ، فأنزل الله تعالى: ﴿ ويسألونك عن الروح ... ﴾[3] فهذا يقتضى أنها نزلت بمكة ، والأول خلافه ، وقد رجح ؛ لأن ما رواه البخارى يقدم على رواية الترمذى ، ولأن ابن مسعود كان حاضراً القصة .

---

(١) الإتقان ٤٤ .
(٢) صحيح البخارى ٣/١٥١ – ١٥٢ ك التفسير سورة بنى إسرائيل .
(٣) سنن الترمذى ٥/٣٠٤ ك التفسير باب ١٨ . وقال : حسن صحيح غريب من هذا الوجه .

وقد يقول البعض : إن سورة الإسراء مكية ، والرواية الثانية تناسب مكية السورة فهى الأولى بالترجيح ، ويجاب عنه بأن مكية السورة لا يمنع وجود آيات مدنية فيها وهذا ما سبق أن أشرت إليه عند الحديث عن المكى والمدنى .

جـ - إذا تساوى الإسنادان فى الصحة ، ولا يوجد مرجح لإحدى الروايتين على الأخرى ، ولكن يمكن الجمع بينهما ، لتقارب زمن الروايتين ، ففى هذه الحالة نحمل الأمر على تعدد السبب ، ولا مانع من ذلك .

مثال هذه الحالة : روى الإمام البخارى بسنده عن سهل بن سعد : أن عويمراً العجلانى أتى عاصم بن عدى - وكان سيد بنى عجلان - فقال : كيف تقولون فى رجل وجد مع امرأته رجلا ، أيقتله فتقتلونه ؟ أم كيف يصنع ؟ سل لى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن ذلك ، فأتى عاصم النبى - صلى الله عليه وسلم - فقال : يا رسول الله . فكره رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المسائل ، فسأله عويمر ، فقال : إن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - كره المسائل وعابها ، قال عويمر : والله لا أنتهى حتى أسأل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن ذلك ، فجاء عويمر فقال : يا رسول الله رجل وجد مع امرأته رجلا أيقتله فتقتلونه ؟ أم كيف يصنع ؟ فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : قد أنزل الله القرآن فيك وفى صاحبتك ، فأمرهما رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالملاعنة بما سمى الله فى كتابه فلاعنها .

وروى البخارى بسنده أيضا عن ابن عباس - رضى الله عنهما - : أن هلال بن أمية قذف امرأته عند النبى - صلى الله عليه وسلم -

بشريك بن سحماء ، فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - البينة أوحد فى ظهرك ، فقال : يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة ؟ فجعل النبى - صلى الله عليه وسلم - يقول : البينة وإلا حد ظهرك . فقال هلال : والذى بعثك بالحق إنى لصادق ، فلينزلن الله ما يبرئ ظهرى من الحد ، فنزل جبريل ، وأنزل عليه : ﴿ والذين يرمون أزواجهم ﴾ فقرأ حتى بلغ ﴿ إن كان من الصادقين ﴾ .[(١)]

فهاتان الروايتان صحيحتان ، ولا مرجح لواحدة منهما على الأخرى ، ولكن يمكن الجمع بينهما لتقارب الزمن بينهما ، ولا يمكن ردهما معاً لأنهما صحيحتان ، ولا يمكن ترجيح إحداهما على الأخرى ؛ لأنه ترجيح بلا مرجح ، يقول الإمام النووى - بعد أن ذكر اختلاف العلماء فى سبب نزول الآية - : « ويحتمل أنها نزلت فيهما جميعا ، فلعهما سألا فى وقتين متقاربين ، فنزلت الآية فيهما ، وسبق هلال باللعان ، فيصدق أنها نزلت فى ذا وفى ذاك ، وأن هلال أول من لاعن » .[(٢)]

د - إذا تساوت الروايتان فى الصحة ، ولا يوجد مرجح لإحداهما على الأخرى ، ولا يمكن الجمع بينهما لتباعد الزمن .

فحكمهما أن نحمل الأمر على تكرار نزول الآية بعدد أسباب النزول التى تحدثت عنها هاتان الروايتان أو تلك الروايات ؛ لأنه إعمال لكل رواية ، ويكون الغرض من ذلك التكرار تعظيم شأن المكرر ، ولفت نظر العباد إلى ما فى تلك الآيات المكررة من فوائد عظيمة .[(٣)]

---

(١) صحيح البخارى ١٦٢/٣ ك التفسير سورة النور .

(٢) شرح النووى على صحيح مسلم ١٠١/٥ .

(٣) انظر مناهل العرفان ١١٩/١ - ١٢٠ بتصرف .

مثال ذلك : ما ذكره الإمام السيوطى فى أسباب نزول قوله تعالى : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ﴾ [النحل : ١٢٦] يقول : أخرج الحاكم والبيهقى فى الدلائل والبزار عن أبى هريرة أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وقف على حمزة حين استشهد ، وقد مثل به فقال : لأمثلن بسبعين منهم مكانك ، فنزل جبريل – والنبى – ﷺ – واقف – بخواتيم سورة النحل : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ﴾ إلى آخر السورة فكف رسول الله – ﷺ – وأمسك عما أراد ، (١) وأخرج الترمذى وحسنه ، والحاكم عن أبى بن كعب قال : لما كان يوم أحد ، أصيب من الأنصار أربعة وستون ، ومن المهاجرين ستة منهم حمزة ، فمثلوا بهم ، فقالت الأنصار : لئن أصبنا منهم يوما مثل هذا لنربين عليهم ، فلما كان يوم فتح مكة أنزل الله : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا ﴾ الآية .(٢)

وظاهر هذا تأخر نزولها إلى الفتح ، وفى الحديث الذى قبله نزولها بأحد ، وقال ابن الحصار: إنها نزلت أولا بمكة ، ثم ثانيا بأحد ، ثم ثالثا يوم الفتح تذكيرا من الله لعباده ، .(٣)

٥ – فوائد معرفة سبب النزول :

يزعم البعض أن معرفة أسباب النزول لا طائل تحتها ؛ فهى لا تعدو أن تكون معرفة لتاريخ النزول ، وهذا زعم خاطئ ؛ لأن معرفة أسباب النزول يترتب عليها فوائد كثيرة ، ومعرفة هذه الفوائد يبطل هذا الزعم، من هذه الفوائد :

---

(١) دلائل النبوة ٣/١٨٤ .

(٢) سنن الترمذى ٥/٢٩٩ – ٣٠٠ ك التفسير باب ١٧ قال : حديث حسن غريب .

(٣) لباب النقول ٢٤١ – ٢٤٢ والإتقان ٤٦ .

الفائدة الأولى : معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم .

إن معرفة وجه الحكمة الباعثة على تشريع الحكم ، يجعل المؤمن يحرص على العمل بكتاب الله تعالى ، وتنفيذ أحكامه ، أما غير المؤمن فقد تسوقه معرفة تلك الحكم الباهرة إلى الإيمان إن كان منصفا ؛ لأنه يرى مدى حرص التشريع الإسلامي على مصالح العباد ، وأمثلة ذلك :

١ - يقول الله تعالى : ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء في المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ [البقرة : ٢٢٢] فهذه الآية بينت الحكمة الباعثة على تشريع عدم جماع الحائض حتى تطهر ، وهي تجنب الأضرار الناشئة عن جماع الحائض قبل أن تطهر ، وهذا ما أثبته الطب في العصر الحديث .

٢ - يقول الله تعالى : ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون ﴾ [النور :٤] هذه الاية تزجر الناس عن قذف الآخرين ، بدون بينة ، كما تزجرهم عن تناول أعراض المحصنات والمحصنين .

٣ - يقول الله تعالى : ﴿ قد سمع الله قول التي تجادلك في زوجها وتشتكي إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير ، الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائي ولدنهم وإنهم ليقولون منكرا من القول وزورا وإن الله لعفو غفور ، والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير ، فمن لم يجد فصيام

شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكينا ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ﴾ [المجادلة : ١-٤] هذه الآيات تزجر الناس عن إيقاع الظهار على زوجاتهم ، لأنه كان طلاقا فى الجاهلية ، فلما جاء الإسلام شدد فى كفارته بعد حادثة خولة .

٤ - يقول الله تعالى : ﴿ وإن عاقبتم فعاقبوا بمثل ما عوقبتم به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين ، واصبر وما صبرك إلا بالله ولا تحزن عليهم ولا تك فى ضيق مما يمكرون ﴾ [النحل : ١٢٦-١٢٧] نزلت هذه الآيات لما قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - والمسلمون - عندما رأوا مثلة بحمزة والمسلمين الذين قتلوا فى غزوة أحد - : لئن أظهرنا الله عليهم لنقتلن بالواحد منهم سبعين . فنزلت الآيات تدعو المسلمين إلى معاملة الكفار بالمثل فى العقوبة ، وتوجههم إلى ما هو أفضل من ذلك وهو الصبر واحتساب الأجر على الله تعالى .

٥ - يقول الله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج ﴾ [البقرة : ١٨٩] لما سأل الناس رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن الأهلة ، بين الله أنها مواقيت يوقت الناس بها فى معاملاتهم ، وأنها مواقيت للفرائض الدينية .

الفائدة الثانية : الاستعانة بمعرفة سبب النزول على فهم الآية ودفع الإشكال عنها .

قد يؤدى عدم معرفة سبب نزول الآية إلى غموض فى فهم معنى الآية ، فيترتب على ذلك وقوع فى الخطأ ، فإذا عرف سبب نزول الآية

زال هذا الغـــمــوض ، واندفع هذا الإشكال ، وعــرف الناس الطريق الصحيح يتضح ذلك من خلال الأمثلة الآتية :

١ – يقول الله تعالى : ﴿ لا تحسبن الذين يفرحون بما أوتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم ﴾ [آل عمران : ١٨٨] يروى البـخـارى بسنده : أن مـروان – أى ابن الحكم – قال لبوابه : اذهب يا رافع إلى ابن عباس فقل : لئن كان كل امـرئ فـرح بما أوتى ، وأحب أن يحـمـد بما لم يفـعل مـعذبا لنعـذبن أجمعون ، فقال ابن عباس : وما لكم ولهذه إنما دعا النبى – صلى الله عليه وسلم – يهود فسألهم عن شيء فكتموه إياه وأخبروه بغيره ، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم ، وفرحوا بما أوتوا من كتمانهم ، ثم قرأ ابن عباس : ﴿ وإذا أخذ الله ميثاق الذين أوتوا الكتاب ﴾ كذلك حتى قولـه ﴿ يفرحـون بما أوتـوا ويحـبـون أن يحـمـدوا بما لـم يفعلوا ﴾ .[1]

إن مـروان بن الحكم لم يفـهم مـعنى الآية ، حيث ظن أن كل من أوتى شيئا ففرح به سوف يعذب ، وبالتالى لن ينجو أحد من العذاب ؛ لأن النفس البشرية بطبيعتها تفرح بالعطاء ، فلما سأل ابن عـباس ، عرف أن لهذه الآية سبب نزول وهو ما كان من اليهود عندما سألهم الرسول – صلى الله عليه وسلم – وبهذا اندفع الإشكال وزال الغموض .

٢ – يقول الله تعالى : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ومن تطوع خيرا فإن الله شاكر عليم ﴾ [البقرة : ١٥٨] .

---

(١) صحيح البخارى ٣/١١٥ ك التفسير سورة آل عمران .

يروى الإمام مسلم بسنده عن هشام بن عروة عن أبيه قال : قلت لعائشة زوج النبى – صلى الله عليه وسلم – : ما أرى على أحد لم يطف بين الصفا والمروة شيئا ، وما أبالى أن لا أطوف بينهما . قالت : بئس ما قلت يابن أختى ! طاف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وطاف المسلمون فكانت سنة ، وإنما كان من أَهَلَّ لمناة الطاغية ، التى بالمُشَلَّل، لا يطوفون بين الصفا والمروة ، فلما كان الإسلام سألنا النبى – صلى الله عليه وسلم – عن ذلك ، فأنزل الله – عز وجل – : ﴿ إن الصفا والمروة من شعائر الله فمن حج البيت أو اعتمر فلا جناح عليه أن يطوف بهما ﴾ ولو كانت كما تقول ، لكانت : فلا جناح عليه أن لا يطوف بهما . قالت عائشة : قد سن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الطواف بينهما ، فليس لأحد أن يترك الطواف بهما ».[1]

لقد فهم عروة من الآية أن السعى بين الصفا والمروة ليس فرضا ؛ لأن نفى الجناح لا يتفق مع فرضية السعى ، فلما سأل خالته عائشة – رضى الله عنها – أزالت إشكاله ببيان سبب نزول الآية ، وأنها نزلت فى الأنصار قبل أن يسلموا ، فقد كانوا يهلون لمناة – وهى الصخرة التى نصبها عمرو بن لحى ، فكانوا يعبدونها عند المشلل بضم الميم وتشديد اللام الأولى المفتوحة – وهو اسم لمكان قريب من قديد بين مكة والمدينة [2] – وكان من أهل يتحرج أن يطوف بالصفا والمروة ، فلما أسلموا سألوا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن ذلك ، وبينوا أنهم كانوا يتحرجون أن يطوفوا بين الصفا والمروة ، فأنزل الله الآية ، ثم

---

(١) صحيح مسلم ٧٠١/٤ – ٧٠٣ ك الحج باب بيان أن السعى بين الصفا والمروة ركن لا يصح الحج إلا به .

(٢) انظر لسان العرب ٦٢٤/١١ مادة مشل .

بينت السيدة عائشة – رضى الله عنها – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قد سن – أى فرض وشرع – الطواف بينهما . وبهذا اتضحت فائدة من فوائد معرفة سبب النزول .

٣ – يقول الله تعالى : ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين ﴾ [المائدة : ٩٣] ذكر الإمام القرطبى عند تفسير هذه الآية أن قدامة بن مظعون الجمحى – أخا عثمان وعبد الله ، وختن عمر بن الخطاب ، خال عبد الله وحفصة أم المؤمنين – قد تأول هذه الآية ، وأخطأ فى فهم معناها لجهله سبب نزولها ، فقال : الخمر مباحة ، وشربها فلما علم عمر – رضى الله عنه – بذلك وسأل عرف أنه قد شربها ، فقال : يا قدامة إنى جالدك ، فقال قدامة : والله لو شربت – كما يقولون – ما كان لك أن تجلدنى يا عمر . قال : ولم يا قدامة ؟ قال : لأن الله سبحانه وتعالى يقول : ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ﴾ الآية إلى ﴿ المحسنين ﴾ فقال عمر : أخطأت التأويل يا قدامة ؛ إذا اتقيت الله اجتنبت ما حرم الله ، ثم أقبل عمر على القوم فقال : ما ترون فى جلد قدامة ؟ فقال القوم : لا نرى أن تجلده ما دام وجعا – أى مريضا – فسكت عمر عن جلده ثم أصبح يوما فقال لأصحابه : ما ترون فى جلد قدامة ؟ فقال القوم : لا نرى أن تجلده ما دام وجعا ، فقال عمر : إنه والله لأن يلقى الله تحت السوط ، أحب إلىّ أن ألقى الله وهو فى عنقى ! والله لأجلدنه . ثم جلده ، .[1]

---

(١) انظر تفسير القرطبى ٦/٢٨١ .

لقد تسبب الجهل بسبب نزول الآية ، في وقوع قدامة في الخطأ ، ولو علم سبب نزولها ما وقع في الخطأ ، فسبب نزولها كما رواه الإمام البخاري أنه لما نزل تحريم الخمر ، قال بعض القوم : قتل قوم وهي في بطونهم ، فأنزل الله : ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا ﴾ .(١)

٤- يقول الله تعالى : ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله إن الله واسع عليم ﴾ (البقرة : ١١٥] ظاهر هذه الآية يبيح للمسلم أن يتوجه حيث أراد في صلاته ، لكن الفقهاء اتفقوا على أنه من شروط صحة الصلاة استقبال القبلة ،وأن الأمر للوجوب في قوله تعالى:﴿ فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره ﴾ [البقرة:١٤٤] .

أما سبب نزول الآية فهو كما رواه الواحدي في أسباب النزول بسنده عن جابر - رضي الله عنه - قال : بعث رسول الله - صلى الله عليه وسلم - سرية كنت فيها ، فأصابتنا ظلمة فلم نعرف القبلة ، فقالت طائفة منا : قد عرفنا القبلة ، هي ههنا قبل الشمال ، فصلوا وخطوا خطوطا ، وقال بعضنا : القبلة ههنا قبل الجنوب ، وخطوا خطوطا ، فلما أصبحوا وطلعت الشمس ، أصبحت تلك الخطوط لغير القبلة ، فلما قفلنا من سفرنا سألنا النبي - صلى الله عليه وسلم - عن ذلك ، فسكت فأنزل الله تعالى : ﴿ ولله المشرق والمغرب فأينما تولوا فثم وجه الله ﴾ .(٢)

---

(١) صحيح البخاري ١٢٦/٣ ك التفسير ، تفسير سورة المائدة .
(٢) أسباب النزول للواحدي ٢٥ .

وهكذا من اطلع على سبب نزول الآية عرف أنها نزلت تعالج حال نفر من المسلمين صلوا في ليلة مظلمة ، فلم يعرفوا جهة القبلة ، فصلى كل منهم تبعا لاجتهاده ، فلم يضيع الله لأحد منهم عمله .

الفائدة الثالثة : دفع توهم الحصر عما يفيد ظاهره الحصر .

عندما يستمع الإنسان إلى قوله تعالى : ﴿ قل لا أجد فيما أوحى إليّ محرما على طاعم يطعمه إلا أن يكون ميتة أو دما مسفوحاً أو لحم خنزير فإنه رجس أو فسقاً أهل لغير الله به .... ﴾ [الأنعام : ١٤٥] يظن أن المحرّم من المطعومات مقصور على ما في هذه الآية ، لكن معرفة سبب نزولها يدفع هذا الظن ، يقول الإمام الزركشي : « قال الشافعي ما معناه في معنى قوله تعالى : ﴿ قل لا أجد فيما أوحى إليّ محرما ... ﴾ الآية : إن الكفار لما حرموا ما أحل الله وأحلوا ما حرم الله ، وكانوا على المضادة والمحادة ، جاءت الآية مناقضة لغرضهم ، فكأنه قال : لا حلال إلا ما حرمتموه ، ولا حرام إلا ما أحللتموه ، نازلا منزلة من يقول: لا تأكل اليوم حلاوة ، فتقول : لا آكل اليوم إلا الحلاوة ، والغرض: المضادة لا النفي والإثبات على الحقيقة ، فكأنه تعالى قال : لا حرام إلا ما أحللتموه من الميتة ، والدم ، ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، ولم يقصد حل ما وراءه ؛ إذ القصد إثبات التحريم لا إثبات الحل.

قال إمام الحرمين : وهذا في غاية الحسن ، ولولا سبق الشافعي إلى ذلك لما كنا نستجيز مخالفة مالك في حصر المحرمات فيما ذكرته الآية » .[1]

---

(١) البرهان ١/٤٦ – ٤٧ .

لقد حرم الكفار ما أحله الله فحرموا البحيرة والسائبة والوصيلة والحامى [1] ، فرد الله عليهم بقوله : ﴿ ما جعل الله من بحيرة ولا سائبة ولا وصيلة ولا حام ولكن الذين كفروا يفترون على الله الكذب وأكثرهم لا يعقلون ﴾ [المائدة : ١٠٣] وأحلوا ما حرم الله فكانوا يأكلون الميتة والدم ولحم الخنزير ، وما أهل لغير الله به ، فجاءت الآية : ﴿ قل لا أجد فيما أوحى إلى .... ﴾ تبين أنهم لا يهتدون إلى الحق ، وإنما يعاندون ولا يتبعون شرع الله تعالى ، وليست المحرمات منحصرة فيما عدته هذه الآية فهناك أشياء أخرى محرمة وقد بسطت كتب الفقه القول فيها.

الفائدة الرابعة : تعيين من نزلت فيه الآية ، فيبرأ المتهم فلا يشتبه بغيره .

يقول الله تعالى : ﴿ والذى قال لوالديه أف لكما أتعداننى أن أخرج وقد خلت القرون من قبلى وهما يستغيثان الله ويلك آمن إن وعد الله حق فيقول ما هذا إلا أساطير الأولين ﴾ [الأحقاف : ١٧] ترتب على جهل مروان بن الحكم سبب نزول هذه الآية أن اتهم عبد الرحمن بن أبى بكر بأنه نزلت فيه هذه الآية ، وأن الله توعده بالعذاب فى قوله : ﴿ أولئك الذين حق عليهم القول فى أمم قد خلت من قبلهم من الجن والإنس إنهم كانوا خاسرين ﴾ [الأحقاف : ١٨] فلما سمعت عائشة – رضى الله عنها

---

(١) البحيرة : ناقة تشق أذنها وتخلي للطواغيت إذا ولدت خمسة أبطن ، والسائبة : ناقة تسيب للأصنام لنحو برء من مرض أو نجاة من حرب . والوصيلة : ناقة تترك للطواغيت إذا بكرت بأنثى ثم ثنت بأنثى ، والحامى : الفحل لا يركب ولا يحمل عليه إذا لقح ولد ولده .
انظر : كلمات القرآن تفسير وبيان على هامش المصحف /١٠٢ .

– ما قال مروان ، ردت عليه ووضحت له ما خفى عليه وجهله ، وبهذا برأت عبد الرحمن بن أبى بكر – رضى الله عنهما – من تهمته .

روى الإمام البخارى بسنده عن يوسف بن ماهك قال : كان مروان على الحجاز ، استعمله معاوية ، فخطب فجعل يذكر يزيد بن معاوية ، لكى يبايع له بعد أبيه ، فقال له عبد الرحمن بن أبى بكر شيئا ، فقال : خذوه ، فدخل بيت عائشة فلم يقدروا ، فقال مروان : إن هذا الذى أنزل فيه : ﴿ والذى قال لوالديه أف لكما أتعداننى ﴾ فقالت عائشة من وراء الحجاب : ما أنزل الله فينا شيئا من القرآن إلا أن الله أنزل عذرى ، .[1]

وفى رواية : ، لما بايع معاوية لابنه ، قال مروان : سنة أبى بكر وعمر ، فقال عبد الرحمن : سنة هرقل وقيصر ، فقال مروان : هذا الذى قال الله فيه : ﴿ والذى قال لوالديه أف لكما ﴾ الآية . فبلغ ذلك عائشة فقالت : كذب مروان والله ما هو به ، ولو شئت أن أسمى الذى نزلت فيه لسميته ، ولكن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – لعن أبا مروان ومروان فى صلبه ، فمروان من لعنة الله ، .[2]

الفائدة الخامسة : تيسير الحفظ ، وتسهيل الفهم على القارئ والسامع .

إن من يقرأ أو يسمع الآية أو الآيات إذا عرف سببها ثبتت فى ذهنه فيسهل حفظها وفهمها ؛ لأن ربط الأسباب بالمسببات ، والأحكام

(١) صحيح البخارى ٣/١٨٨ ك التفسير – سورة الأحقاف .
(٢) تفسير ابن كثير ٤/١٥٩ .

بالحوادث ، والحوادث بالأشخاص والأزمنة والأمكنة أدعى إلى ثبوتها في الذهن . فمن يقرأ قول الله تعالى : ﴿ يسألونك عن الأهلة قل هي مواقيت للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون ﴾ [البقرة : ١٨٩] إذا لم يكن عالما بسبب نزول الآية لتساءل : ما هو الرابط بين حكم الأهلة وبين أن يأتي الناس البيوت من ظهورها ؟

والجواب: أن العرب سوى قريش كانوا إذا أحرموا لا يدخلون من باب في الإحرام ، فبين الله أن هذا الفعل ليس من البر ، وعرض بسؤال السائلين عن الأهلة ، وبين أنه في غير محله ، كأنه قال لهم عند سؤالهم عن الحكمة في تمام الأهلة ونقصانها : « معلوم أن كل ما يفعله الله فيه حكمة ظاهرة ، ومصلحة لعباده ، فدعوا السؤال عنه ، وانظروا في واحدة تفعلونها أنتم مما ليس من البر في شيء وأنتم تحسبونه برا »[1].

فإذا عرف سبب نزول هذه الآية سهل فهم معناها وحفظها .

٦ - العموم والخصوص .

هذا البحث متصل بأسباب النزول ، ويرتبط به ؛ لأن السبب قد يكون عاما واللفظ عام ، أو يكون السبب خاصا واللفظ خاص ، أو يكون اللفظ عاما والسبب خاص ، ويعرف الأول : بعموم اللفظ وعموم السبب، ويعرف الثاني : بخصوص اللفظ وخصوص السبب ، ويعرف الثالث : بعموم اللفظ وخصوص السبب .

---

(١) البرهان ٦٨/١ .

أ - تعريف العموم والخصوص :

عرف الأصوليون العموم بأنه : تناول اللفظ لما يصلح له من الأفراد دفعة .[1]

أما الخصوص فقالوا فيه : « الخصوص والتخصيص بمعنى واحد ، والتخصيص هو : إخراج بعض ما يتناوله اللفظ ، أى بيان أن بعض الأفراد التى يتناولها اللفظ بالوضع خارج عن حكمه الثابت له ، وأن ذلك الحكم مقصور على بعض أفراده ابتداء » .[2]

أولا : عموم اللفظ وعموم السبب :

معنى ذلك أن يكون لفظ الآية جاء بصيغة العموم ؛ وفى سبب عام، مثال ذلك قوله تعالى : ﴿ ويسألونك عن المحيض قل هو أذى فاعتزلوا النساء فى المحيض ولا تقربوهن حتى يطهرن فإذا تطهرن فأتوهن من حيث أمركم الله إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين ﴾ [البقرة : ٢٢٢] فلفظ (يسألونك) و(فاعتزلوا) و(فأتوهن) و(ولا تقربوهن) عام ؛ لأنه يخاطب جميع المسلمين ، والسبب الذى نزلت فيه الآية عام وهو سؤال المسلمين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - عن التعامل مع الزوجة الحائض ، فالعبرة تكون لعموم اللفظ والسبب ، أى أن يكون الحكم وهو اعتزال النساء ، وعدم مجامعتهن وهن حيض - عاما يتناول جميع المسلمين إلى قيام الساعة .

وغير هذا المثال كثير من الأمثلة ، فإذا كان اللفظ عاما والسبب عام كان الحكم عاما .

---

(١) مختصر صفوة البيان ٢/٢٢ .

(٢) المصدر السابق ٢/٢٧ .

ثانيا : خصوص اللفظ وخصوص السبب .

معنى ذلك أن يجئ سبب النزول بلفظ خاص ، فى سبب خاص .
أمثلة ذلك :

١ - قوله تعالى : ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم ﴾ [التوبة : ١١٨] فهذه الآية تحدثت عن الثلاثة الذين تخلفوا عن غزوة تبوك وهم كعب ابن مالك ، وهلال بن أمية ، ومرارة بن الربيع ، حين صدقوا مع رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وأخبروه أنهم لم يكونوا من ذوى الأعذار ، فأمر الرسول - صلى الله عليه وسلم - المسلمين أن يقاطعوهم حتى اشتد عليهم الأمر أربعين ليلة ففرج الله عنهم وقبل توبتهم ، وهكذا نجد أن اللفظ خاص وهو (وعلى الثلاثة) والسبب خاص وهو تخلف هؤلاء الثلاثة عن غزوة تبوك ، فالعبرة فى هذه الآية لخصوص اللفظ وخصوص السبب معا ، ويكون حكم هذه الآية خاصا لا يتعدى هؤلاء المتخلفين إلى غيرهم .

٢ - يقول الله تعالى : ﴿ وسيجنبها الأ تقى ، الذى يؤتى ماله يتزكى ﴾ [الليل : ١٧-١٨] نزلت هذه الآيات فى أبى بكر الصديق - رضى الله عنه - بالإجماع ، وظن البعض أنها عامة فى كل من عمل عمله ، ولكن المراد الخصوص . يقول الإمام السيوطى :

« ووهم من ظن أن الآية عامة فى كل من عمل عمله ، إجراء له على القاعدة ، وهذا غلط فإن هذه الآية ليس فيها صيغة عموم ؛ إذ

الألف واللام إنما تفيد العموم إذا كانت موصولة أو معرفة فى جمع ؛ زاد قوم : أو مفرد بشرط ألا يكون هناك عهد ، واللام فى (الأتقى) ليست موصولة ؛ لأنها لا توصل بأفعل التفضيل إجماعا ، والأتقى ليس جمعا ، بل هو مفرد والعهد موجود ، خصوصا مع ما يفيده صيغة « أفعل » من التمييز وقطع المشاركة ، فبطل القول بالعموم ، وتعين القطع بالخصوص ، والقصر على من نزلت فيه – رضى الله عنه – ».[1]

كما أن سبب نزول الآية فى أبى بكر الصديق – رضى الله عنه – حين تصدق بأمواله ، وهو سبب خاص ، وعليه يكون حكم الآية خاصا بأبى بكر ولا يتعداه إلى غيره .

إلى غير ذلك من الآيات .

ثالثا : عموم اللفظ وخصوص السبب .

يراد بهذا أن يكون اللفظ الذى نزلت به الآية عاما ، وأن يكون السبب خاصا .

اختلف العلماء فى حكم هذا النوع : هل العبرة بعموم اللفظ أو بخصوص السبب ؟

فذهب الجمهور إلى أن العبرة بعموم اللفظ ، أى أن اللفظ العام يتناول من نزلت الآية بسببه ، ويتعداه إلى غيره ممن تناولهم اللفظ ولم تنزل الآية بسببهم . مثال ذلك :

١ – آيات اللعان التى نزلت فى سورة النور بسبب هلال بن أمية

---

(١) الإتقان للسيوطى ٢ / ٤٢ .

حين قذف امرأته عند رسول الله - صلى الله عليه وسلم - بالزنا ، فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : البينة وإلا حد فى ظهرك ، فقال : يا رسول الله إذا رأى أحدنا على امرأته رجلا ينطلق يلتمس البينة ؟ فجعل رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يقول : البينة وإلا حد فى ظهرك ، فقال هلال : والذى بعثك بالحق إنى لصادق ، ولينزلن الله ما يبرئ ظهرى من الحد . فأنزل الله عز وجل آيات اللعان : ﴿ والذين يرمون أزواجهم ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ إن كان من الصادقين ﴾ فسبب نزول هذه الآيات خاص ، واللفظ عام ، وهو الاسم الموصول (والذين) والاسم الموصول من صيغ العموم ، كما يضاف إلى ذلك الضمائر التى تعود على الجمع فى الآيات ، وبهذا نجد أن الحكم قد انسحب من السبب وشمل جميع أفراد اللفظ فأصبح الحكم عاما ، وهو ثابت بعموم هذا النص ، ولا يحتاج إلى دليل آخر من قياس أو غيره والقاعدة تقول : لا قياس ولا اجتهاد مع النص .

٢ - آيات حكم الظهار فى سورة المجادلة من أول السورة إلى قوله تعالى : ﴿ وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم ﴾ [المجادلة ١ : ٤] كان سببها قول أوس بن الصامت لزوجته خولة بنت ثعلبة : أنت علىّ كظهر أمى . وشكواها لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ومجادلتها حين قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : قد حرمت عليه ، وشكواها إلى الله تعالى ، قالت : يا رسول الله أكل شبابى ، ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبر سنى ، وانقطع ولدى ظاهر منى ، اللهم إنى أشكو إليك ، فما برحت حتى نزل قول الله تعالى : ﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله ... ﴾ فهذه الآيات نزلت بلفظ عام هو قوله : ﴿ الذين

يظاهرون منكم من نسائهم ﴾ وقوله : ﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا ﴾ وسببها وإن كان خاصا ، إلا أن حكمها عم جميع من يقع منه الظهار في أي وقت من الأوقات .

يقول الإمام السيوطي نقلا عن الإمام ابن تيمية : قد يجئ كثيراً من هذا الباب قولهم : هذه الآية نزلت في كذا ؛ لا سيما إن كان المذكور شخصا كقولهم : إن آية الظهار نزلت في امرأة ثابت بن قيس ، وإن آية الكلالة نزلت في جابر بن عبد الله ، و قوله : ﴿ وأن احكم بينهم ﴾ [المائدة : ٤٩] نزلت في بني قريظة والنضير ، ونظائر ذلك مما يذكرون أنه نزل في قوم من المشركين بمكة ، أو في قوم من اليهود والنصارى ، أو في قوم من المؤمنين . فالذين قالوا ذلك لم يقصدوا أن حكم الآية يختص بأولئك الأعيان دون غيرهم ، فإن هذا لا يقوله مسلم ولا عاقل على الإطلاق ، .[1]

وهذا الرأى هو الراجح وهو رأى جمهور العلماء .

الرأى الثانى : قال غير الجمهور : إن العبرة بخصوص السبب . أى أن اللفظ يكون خاصا بالحادثة التى نزل بسببها ، أما ما شابه هذه الحادثة فإن حكمه لا يعلم من نص هذه الآية ، بل يعلم بدليل آخر ، هو القياس المستوفى لشروطه ، أو قوله – صلى الله عليه وسلم : « حكمي على الواحد حكمي على الجماعة » .[2]

يقول الإمام السيوطي نقلا عن الإمام ابن تيمية : « والناس وإن تنازعوا فى اللفظ العام الوارد على سبب : هل يختص بسببه ؟ فلم يقل

---

(١) الإتقان ٤١ – ٤٢ .   (٢) مناهل العرفان ١/ ١٢٥ – ١٢٦ بتصرف .

أحد إن عمومات الكتاب والسنة تختص بالشخص المعين ، وإنما غاية ما يقال إنها تختص بنوع ذلك الشخص فيعم ما يشبهه ، ولا يكون العموم فيها بحسب اللفظ ، .[1]

يشير الإمام ابن تيمية إلى أن الفريقين متفقان على أن اللفظ العام الوارد على سبب خاص ، لا يختص بسببه ، إلا أن البعض وهم الجمهور يقولون : إن اللفظ العام يعم بنفسه فيشمل السبب وغيره ، أما الفريق الثانى فإنهم يقولون : إنه يعم لا بلفظه ، بل يعم بدليل آخر خارج عن اللفظ ، وهو مشابهة العام للخاص فى علة الحكم ، وهو ما يسمى بالقياس ، أو يعم بقوله – صلى الله عليه وسلم – : « حكمى على الواحد حكمى على الجماعة » .

ومما تجدر الإشارة إليه أن العموم المراد فى اللفظ القرآنى حتى تكون العبرة بعموم اللفظ لا بخصوص السبب هو العموم الحقيقى ، فإذا ورد اللفظ القرآنى بصيغة العموم الظاهرى ، كانت العبرة لخصوص السبب لا لعموم اللفظ[2] مثال ذلك :

قوله تعالى : ﴿ ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا إذا ما اتقوا وآمنوا وعملوا الصالحات ثم اتقوا وآمنوا ثم اتقوا وأحسنوا والله يحب المحسنين ﴾ [المائدة : ٩٣] فلفظ الآية : ﴿ الذين آمنوا وعملوا الصالحات ﴾ عام ، لكن عمومه ظاهرى فقط ؛ لأن المراد من الذين آمنوا جماعة من المسلمين ، ماتوا وفى بطونهم الخمر قبل أن ينزل القرآن بتحريمها قطعيا ، كما أن السبب خاص وهو سؤال بعض

---

(١) الإتقان ٢ / ٤٢ .

(٢) هدى الفرقان ٢/ ٦٦ بتصرف.

الصحابة بعد نزول تحريم الخمر – عمن ماتوا وكانوا يشربون الخمر ، فالعبرة هنا لخصوصية السبب ، وليست لعمومية اللفظ ، ولو كانت العبرة لعمومية اللفظ لأباح المسلمون لأنفسهم أن يشربوا الخمر .

ومثال ذلك – أيضا – قوله تعالى : ﴿ لا تحسبن الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا بما لم يفعلوا فلا تحسبنهم بمفازة من العذاب ولهم عذاب أليم ﴾ [آل عمران : ١٨٨] فى الآية قوله : ﴿ الذين يفرحون بما أتوا ويحبون أن يحمدوا .... ﴾ نجد أن فى ألفاظها العموم لكن هذا العموم ظاهرى فقط ، فليس المراد كل من فرح بما أوتى من جميع الخلق ، إنما المراد البعض وهم اليهود ، والدليل على ذلك ما رواه الإمام البخارى فى سبب نزول هذه الآية ، حين سأل مروان بن الحكم ابن عباس – رضى الله عنهما – عن معنى الآية وقال : لئن كان كل امرئ فرح بما أوتى ، وأحب أن يحمد بما لم يفعل معذبا لنعذبن أجمعون ، فأجابه ابن عباس – رضى الله عنهما – أن سبب نزول هذه الآية ما كان من شأن اليهود حين سألهم رسول الله – صلى الله عليه وسلم – عن شئ فكتموه إياه ، وأخبروه بغيره ، فأروه أن قد استحمدوا إليه بما أخبروه عنه فيما سألهم ، وهكذا نعرف أن العبرة هنا لخصوص السبب لا لعموم اللفظ ؛ لأن العموم ظاهرى فقط والمراد بهؤلاء الذين يفرحون بما أتوا اليهود فقط .

وغير ذلك من الأمثلة الكثير .

المبحث الثالث
إعجاز القرآن الكريم

١ - تقديم :

اصطفى الله - سبحانه وتعالى - من عباده رسله ، واختارهم ليحملوا شريعته إلى البشر ، حتى لا يكون للناس على الله حجة بعد الرسل ، وأيدهم بالمعجزات ليتبين أقوامهم صدق ما جاءوا به ، وقد ذكر القرآن الكريم بعض معجزات الرسل السابقين ، فقال سبحانه : ﴿ وأوحينا إلى موسى أن ألق عصاك فإذا هى تلقف ما يأفكون ﴾ [الأعراف : ١١٧] ويقول : ﴿ فأوحينا إلى موسى أن اضرب بعصاك البحر فانفلق فكان كل فرق كالطود العظيم ﴾ [الشعراء : ٦٣] مشيرا بذلك إلى معجزة العصا ، ويقول سبحانه : ﴿ وأدخل يدك فى جيبك تخرج بيضاء من غير سوء ﴾ [النمل : ١١] ويقول سبحانه وتعالى - متحدثا عن معجزات عيسى - عليه السلام - : ﴿ ورسولا إلى بنى إسرائيل أنى قد جئتكم بآية من ربكم أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه [(١)] والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين ﴾ [آل عمران : ٤٩] . ويقول عن ناقة صالح : ﴿ قال هذه ناقة لها شرب ولكم شرب يوم معلوم ﴾ [الشعراء : ١٥٥] ويقول سبحانه وتعالى عن بعض معجزات نبينا - صلى الله عليه وسلم - : ﴿ اقتربت الساعة وانشق القمر ﴾ [القمر :١] .

---

(١) الأكمه الذى يولد مطموس العين ، وقد يقال لمن تذهب عينه كمهت عيناه حتى ابيضتا : مفردات الراغب : ٤٤٢ .

كما أن هناك بعض المعجزات التى وقعت لنبينا - صلى الله عليه وسلم - ولم يذكرها القرآن الكريم كحنين الجذع ، ورد عين قتادة ، وإخبار الشاة المسمومة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أن بها سما ، وغير ذلك مما هو ثابت صحيح .

٢ - تعريف المعجزة وشرح التعريف .

١ - المعجزة هى : أمر خارق للعادة ، يظهره الله على يد رسوله ، تأييداً له فى دعواه .

٢ - عرفها الإمام السيوطى فقال : هى أمر خارق للعادة ، مقرون بالتحدى ، سالم عن المعارضة .(١)

ومعنى (أمر خارق للعادة) أى أنه أمر يفوق قدرة البشر العاديين ، ويفوق ما انتشر فى عهد أى نبى وقعت المعجزة على يديه ، كسلب النار خاصية الإحراق ؛ فلم تحرق إبراهيم - عليه السلام - ، وكما كان فى عهد موسى - عليه السلام - حيث اشتهر قومه بالسحر ، فكانت معجزته العصا ، يلقيها فإذا هى حية تسعى تلقف ما يأفكون ، وكما كان فى عهد عيسى - عليه السلام - حيث اشتهر قومه بالطب ، فكانت معجزته إبراء الأكمه والأبرص ، بل أشد من ذلك إحياء الموتى بإذن الله، وأن يخلق من الطين كهيئة الطير فينفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله ، وغير ذلك مما ذكرت من المعجزات التى فاقت قدرة البشر .

ومعنى (يظهره الله على يد رسوله) أن المعجزة تقع على يد

---

(١) الإتقان ٦٥ .

الرسول بعد بعثته ، خرج بهذا القول ما وقع على يد الرسول - صلى الله عليه وسلم - قبل بعثته ، فإنه يسمى إرهاصا كالغمامة التى كانت تظل الرسول - صلى الله عليه وسلم - وهو فى تجارة خديجة ، وخرج ما وقع على يد ولى فإنه يسمى كرامة .

ومعنى (تأييداً له فى دعواه) أن هذه المعجزة تدل على صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، فيما جاء به من عند ربه ، فوقوعها شهادة لمن وقعت على يديه بصدقه .

أما قول الإمام السيوطى : (مقرون بالتحدى) فمعناه أن التحدى يقع بنفس المعجزة ، سواء طلبها القوم من الرسول ، أو لم يطلبوها .

ومعنى قوله : (سالم عن المعارضة) أنهم لن يستطيعوا الإتيان بمثل هذه المعجزة ، سواء طلب منهم الرسول ذلك ، كما حدث فى تحدى رسولنا - صلى الله عليه وسلم - لقريش بالقرآن أم لم يطلب منهم ذلك .

٣ - أنواع المعجزة .

المعجزة نوعان :

١ - معجزة حسية وقتية ، كناقة صالح وما كان من أمرها ، ومعجزات موسى وعيسى - عليهما السلام - وكالمعجزات الحسية التى وقعت على يد نبينا - صلى الله عليه وسلم - .

٢ - معجزة عقلية خالدة إلى قيام الساعة ، وهى معجزة القرآن الكريم .

وقد جمع الله تعالى لنبينا - صلى الله عليه وسلم - هذين النوعين،

فوقعت على يديه المعجزات الحسية ، وأنزل عليه القرآن الكريم وتحدى به العرب ليظهر إعجازه ، لبيان فضله - صلى الله عليه وسلم - ومكانته .

٤ - الفرق بين معجزة القرآن الكريم ومعجزات الرسل السابقين .

١ - كانت معجزات الرسل السابقين معجزات حسية وقتية ، تتواءم مع وقتية رسالتهم ، أما معجزة القرآن الكريم فإنها معجزة عقلية ، تتواءم مع رسالة الإسلام الخالدة ، العامة إلى قيام الساعة .

٢ - يقول الإمام السيوطى : « وأكثر معجزات بنى إسرائيل كانت حسية لبلادتهم ، وقلة بصيرتهم ، وأكثر معجزات هذه الأمة عقلية ؛ لفرط ذكائهم ، وكمال أفهامهم ؛ لأن هذه الشريعة لما كانت باقية على صفحات الدهر إلى يوم القيامة خصت بالمعجزة العقلية الباقية ، ليراها ذوو البصائر ، قال - صلى الله عليه وسلم -: « ما من الأنبياء إلا أعطى ما مثله آمن عليه البشر ، وإنما كان الذى أوتيته وحيا أوحاه الله إلىّ فأرجو أنى أكثرهم تابعا يوم القيامة » .[1]

قيل فى معنى الحديث :

أ - إن معجزات الأنبياء الماضية كانت حسية تشاهد بالأبصار كناقة صالح ، وعصا موسى ، فى حين أن معجزة القرآن تشاهد

---

(١) صحيح البخارى ٤/٢٥٦ ك الإعتصام بالكتاب والسنة باب قول النبى - صلى الله عليه وسلم - بعثت بجوامع الكلم .

بالبصيرة ، فيكون من يتبعه لأجلها أكثر ؛ لأن ما يشاهد بعين الرأس ينقرض بانقراض مشاهده ، والذى يشاهد بعين العقل باق يشاهده كل من جاء بعد الأول مستمرا .

ب- وقيل فى معناه أيضا : إن معجزات الأنبياء انقرضت بانقراض أعصارهم ، فلم يشاهدها إلا من حضرها ، فى حين أن معجزات القرآن الكريم باقية إلى يوم القيامة ، وخرقه للعادة فى أسلوبه ، وبلاغته ، وإخباره بالغيبيات ، فلا يمر عصر إلا ويظهر فيه شىء مما أخبر به أنه سيكون يدل على صحة دعواه ، .[1]

وهذا يكون سببا فى إيمان كثير من الناس على مر العصور ؛ لأن رسالة الإسلام هى الرسالة الخاتمة .

٥ - لماذا كان القرآن الكريم معجزة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ؟

سبق فى تعريف المعجزة أنها أمر خارق للعادة ، وأن هذا الأمر يكون مما ذاع وانتشر بين الناس فى عصر المعجزة ، ولقد أجرى الله سبحانه وتعالى على يد نبينا - صلى الله عليه وسلم - بعض المعجزات مثل إخباره عن بعض ما يغيب عن حسه ، ومعجزة الإسراء والمعراج ، وغير ذلك من معجزات حسية ؛ لكن القرآن الكريم كان وما يزال معجزة الرسول - صلى الله عليه وسلم - ، وذلك لأن أمة العرب الذين بعث فيهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وصلوا درجة كبيرة من الفصاحة والبيان - على الرغم من أميتهم - فقد كانوا أساطين

---

(١) الإتقان للسيوطى ٤٦٥ بتصرف .

الفصاحة، وكانت صدورهم هي أناجيلهم التى يسجلون فيها أشعارهم ، وأنسابهم ، وكان الواحد منهم يلقى قصيدته التى قد تزيد على الثلثمائة بيت ، ينتقل فيها من فصاحة إلى فصاحة ، ومن رقة إلى رقة وعذوبة، يرسم فيها بكلماته ما تقع عليه عينه رسما دقيقا ، وكأن كلمات هذا الأمي ريشة فنان ، ناهيك عن قوة الألفاظ ، وعذوبة المعانى ، هذا فى الشعر ، أما النثر فقد كان السجع والمحسنات البديعية يملآنه ، وخير دليل على عظمتهم فى هذا الشأن ما ذكر التاريخ عن المسابقات البيانية التى كانت تعقد فى أسواق عكاظ ، وذى المجنة ، وذى المجاز ، وفى هذه الأسواق كانت تجارة المادة ، وهى زاد الجسم ، وتجارة البيان ، وهى زاد النفس ، وكانت هذه التجمعات الأدبية تنتهى باختيار أعظم قصيدة فى كل موسم تعلق على أستار الكعبة ، وهى ما عرفت بالمعلقات .

يقول القاضى عياض:

« خصوا من البلاغة والحكم بما لم يخص به غيرهم من الأمم ، وأوتوا من ذرابة [1] اللسان ما لم يؤت إنسان ، ومن فصل الخطاب ما يقيد الألباب ، وجعل الله لهم ذلك طبعا وخلقة ، وفيهم غريزة وقوة ، يأتون منه على البديهة بالعجب ، ويدلون به إلى كل سبب ، فيخطبون بديها فى المقامات وشديد الخطب ويرتجزون به بين الطعن والضرب ، ويمدحون ويقدحون ، ويتوسلون ويتوصلون ، ويرفعون ويضعون ،

---

(١) ذرابة اللسان حدته وشدته . القاموس المحيط ١/ ٧٠ .

فيأتون من ذلك بالسحر الحلال ، فيخدعون الألباب ، ويذللون الصعاب، ويذهبون الإحن [1] ، ويهيجون الدمن [2] ، ويجرئون الجبان ، . [3]

ويقول الشيخ أبو زهرة : ، ومقدار إدراكهم لجمال الكلمات فى رنينها ، كما يدرك الصيرفى رنين الحلى الكريمة غير الزائفة من بين ما يعرض له .

تلك كانت حال العرب في جاهليتهم ، كانت جهلا بالدين مع بقايا ملة إبراهيم ، وليسوا جهالا فى البيان ومعرفة أسرار البلاغة ، يدركون بلحظ الحال ، لا بإمعان عقل ، وطول تفكير ، يدركونه بنغماته ومعانيه فى لمح الفكر ، من غير طول المكث ؛ لذلك كان المناسب لمثل هؤلاء الذين تلقوا دعوة محمد - صلى الله عليه وسلم - وخاطبهم القرآن الكريم ابتداء أن تكون المعجزة من النوع الذى يحسنونه ، ليعرفوا مقدار علوه عن الطاقة ، فالمعجزة بلا شك تناسبهم فوق مناسبتها لموضوع الرسالة ، وعموم أزمانها ، وخلودها إلى يوم القيامة ، . [4]

٦ - إعجاز القرآن الكريم .

[معنى إعجاز القرآن] : العجز هو عدم المقدرة على فعل الشىء، وأعجزت فلانا أى كلفته بما لا يقدر عليه لأثبت عجزه .

والإعجاز هو : إثبات عجز الغير ، وعدم قدرته وإفحامه . وإعجاز القرآن ، مركب إضافى وهو من إضافة المصدر لفاعله ، والمفعول

---

(١) الإحن : الغضب والأحقاد . القاموس المحيط ١٩٧/٤ .
(٢) الدمن : الحقد القديم . القاموس المحيط ٢٢٥/٤ .
(٣) الشفا ٢١٧/١-٢١٨ بتصرف.
(٤) المعجزة الكبرى ٤٩.

وما تعلق بالفعل محذوف للعلم به ، والمعنى : إثبات القرآن عجز الخلق عن الإتيان بما تحداهم به ». [1]

والغرض من هذا الإعجاز : إثبات لازمه ، وهو أن القرآن حق من عند الله ، وأن من نزل عليه صادق فيما بلغ عن ربه ، فحين يشعر الناس بالعجز تجاه المعجزة ، ويتأكدون أنها ليست في مقدور البشر ، ينتقل بهم هذا الشعور إلى الإيمان بأن هذه المعجزة من عند الله خالق البشر ، والإيمان بالنبي الذي جرت على يديه المعجزة .

٧ - التحدي بالقرآن الكريم .

ما إن قرعت كلمات القرآن الكريم أسماع العرب ، حتى وصلت إلى أعماقهم ، واضطربت أفهامهم ، لأنهم وجدوه - بذوقهم البياني - فوق كل كلام ، ورأوه عاليا في جوامع كلمه عن طاقة كل إنسان ، وعرفوا أنه ليس من كلام محمد - صلى الله عليه وسلم - لكن العناد سيطر على قلوبهم ، فماذا قالوا في شأن هذا القرآن ؟

ذكر ابن إسحاق في السيرة أن قريشا أرسلت عتبة بن ربيعة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - يفاوضه فجلس عتبة إلى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - وقال : يابن أخي إنك منا حيث قد علمت ، وإنك قد أتيت قومك بأمر عظيم فرقت به جماعتهم ، وسفهت به أحلامهم ، وعبت به آلهتهم ، فاستمع مني أعرض عليك أمورا تنظر فيها ، لعلك تقبل منها بعضها . فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم -: قل يا أبا الوليد أسمع ، قال : يابن أخي ، إن كنت إنما تريد

---

(١) مناهل العرفان ٣٣١/٢ بتصرف .

بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا ، وإن كنت تريد به شرفاً سودناك علينا ، حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا ، وإن كان هذا الذى يأتيك رئيا من الجن تراه ولا تستطيع رده عن نفسك ، طلبنا لك الطب ، وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه ، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يتداوى منه ، حتى إذا فرغ عتبة ورسول الله – صلى الله عليه وسلم – يستمع منه قال : أقد فرغت يا أبا الوليد ؟ قال : نعم . قال : فاسمع منى. قال : أفعل . فقال – صلى الله عليه وسلم – : ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ، حم ، تنزيل من الرحمن الرحيم ، كتاب فصلت آياته قرآنا عربيا لقوم يعلمون ، بشيرا ونذيرا فأعرض أكثرهم فهم لا يسمعون ...﴾ ثم مضى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فيها يقرؤها عليه ، فلما سمعها منه عتبة أنصت لها ، ثم انتهى رسول الله – صلى الله عليه وسلم– إلى السجدة منها فسجد ، ثم قال : قد سمعت يا أبا الوليد ما سمعت ، فأنت وذاك . فقام عتبة إلى أصحابه ، فقال بعضهم لبعض : نحلف بالله لقد جاءكم أبو الوليد بغير الوجه الذى ذهب به ، فلما جلس إليهم قالوا : ما وراءك يا أبا الوليد ؟ قال : ورائى أنى قد سمعت قولا والله ما سمعت مثله قط ، والله ما هو بالشعر ، ولا بالسحر ، ولا بالكهانة، يا معشر قريش أطيعونى وخلوا بين هذا الرجل وبين ما هو فيه فاعتزلوه ، فوالله ليكونن لقوله الذى سمعت منه نبأ عظيم ، قالوا : سحرك والله يا أبا الوليد بلسانه ، .[١]

---

(١) السيرة النبوية ٢٩٢/١ – ٢٢٩٣ بتصرف .

وروى الإمام ابن جرير بسنده عن عكرمة : أن الوليد بن المغيرة جاء إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - فقرأ عليه القرآن فكأنه رق له ، فبلغ ذلك أبا جهل فقال : أى عم إن قومك يريدون أن يجمعوا لك مالاً ، قال : لم ؟ قال : يعطونكه ؛ فإنك أتيت محمدا تتعرض لما قبله ، قال : قد علمت قريش أنى أكثرها مالا ، قال : فقل فيه قولاً يعلم قومك أنك منكر لما قال ، وأنك كاره له . قال : فما أقول فيه ؟ فوالله ما منكم رجل أعلم بالأشعار مني ، ولا أعلم برجزه مني ، ولا بقصيده ، ولا بأشعار الجن ، والله ما يشبه الذى يقول شيئا من هذا ، والله إن لقوله لحلاوة ، وإنه ليحطم ما تحته ، وإنه ليعلو ولا يعلى ، قال : والله لا يرضى قومك حتى تقول فيه . قال : فدعنى حتى أفكر فيه ، فلما فكر قال : هذا سحر يأثره عن غيره ، فنزلت : ﴿ ذرنى ومن خلقت وحيدا ... ﴾ .[1]

وتعاهد من الكفار كبراؤهم على ألا يسمعوا لهذا القرآن ؛ لعلمهم بأثره على سامعيه يقول تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا لا تسمعوا لهذا القرآن والغوا فيه لعلكم تغلبون ﴾ [فصلت : ٢٦] .

لقد تحدى الله العرب بالقرآن ليظهر عجزهم ؛ لأن القرآن معجزة رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، وليستدلوا به على صدق الرسول - صلى الله عليه وسلم - فيما جاء به من عند الله ، وإنهم كانوا يعلمون صدق رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ؛ لكن العناد سيطر على عقولهم .

وقد وقع التحدى بالقرآن على ثلاث مراحل انتهت كلها بتسجيل العجز عليهم .

---

(١) جامع البيان جـ٢٩/٩٨ .

المرحلة الأولى : تحداهم أن يأتوا بمثل هذا القرآن . قال تعالى : ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ [الطور : ٣٤] ، ثم أكد عجزهم حتى ولو ساند بعضهم البعض الآخر ، أو ساعدت الجن الإنس ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ [الإسراء : ٨٨] .

ولما تأكد عجزهم عن الإتيان بمثل القرآن الكريم ، سجل الله عليهم ذلك ، وانتقل بهم إلى مرحلة أخرى من مراحل التحدى ، تبين أن عجزهم أشد .

المرحلة الثانية : تحداهم أن يأتوا بعشر سور من مثل سور القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بعشر سور مثله مفتريات وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم يستجيبوا لكم فاعلموا أنما أنزل بعلم الله وأن لا إله إلا هو فهل أنتم مسلمون ﴾ [هود : ١٣-١٤] لقد أبطلت الآيات ادعاءهم الكاذب ، وهو أن القرآن مفترى من عند محمد – صلى الله عليه وسلم – وذلك بتحديهم أن يأتوا بعشر سور مثله مفتريات – كما يدعون – فثبت عجزهم ، فلما عجزوا انتقل إلى مرحلة أخرى ، هى آخر مراحل التحدى ، أثبتت عجزهم النهائى عن معارضة أقل سورة ، وأثبتت أن القرآن الكريم فى ذروة الفصاحة والإعجاز .

المرحلة الثالثة : تحداهم أن يأتوا بسورة واحدة مثل سور القرآن الكريم ، قال تعالى : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله وادعوا من استطعتم من دون الله إن كنتم صادقين ﴾ [يونس : ٣٨] وقد نفى الله

وقوع ذلك منهم ولو مستقبلا ، قال سبحانه وتعالى : : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التى وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ [البقرة : ٢٣ - ٢٤] .

وصدق ما وعد الله به : ﴿ لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ . ولو كانت عند أحدهم مقدرة على أن يعارض القرآن أو أن يعارض سورة فى مثل بلاغة القرآن وفصاحته ، ويرد على هذا التحدى لفعل ، وما تأخر لحظة ؛ لأنهم كانوا أحرص الناس على إطفاء نور الإسلام ، وإخفاء أمره ، لكنهم عدلوا عن المعارضة إلى العناد ، والإستهزاء ، فقالوا سحر ، وقالوا : إفك افتراه محمد ، وقالوا : أساطير الأولين . قال تعالى : ﴿ وقال الذين كفروا إن هذا إلا إفك افتراه وأعانه عليه قوم آخرون فقد جاءوا ظلما وزورا ، وقالوا أساطير الأولين اكتتبها فهى تملى عليه بكرة وأصيلا ﴾ [الفرقان : ٤-٥] .

٨ - القدر المعجز من القرآن الكريم

اختلف العلماء في بيان القدر المعجز من القرآن الكريم على أقوال :

١ - ذهب أبو الحسن الأشعرى إلى أن القدر المعجز من القرآن الكريم هو: السورة قصيرة كانت أو طويلة ، أو ما كان بمقدارها ، فإن كانت الآية بمقدار حروف سورة - وإن كانت كسورة الكوثر - فذلك معجز ، قال : ولم يقم دليل على عجزهم عن المعارضة فى أقل من هذا القدر .[1]

---

(١) إعجاز القرآن هامش الإتقان ٢/١٥١ .

لأن الله تدرج معهم حتى طلب معارضة السورة ، واستدل أصحاب هذا الرأى بقوله تعالى : ﴿ وإن كنتم فى ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله ﴾ [البقرة : ٢٣] وبقوله : ﴿ أم يقولون افتراه قل فأتوا بسورة مثله ﴾ [يونس : ٣٨] .

٢ – ذهب بعض المعتزلة إلى أن القدر المعجز متعلق بجميع القرآن .[١] أى أن القرآن معجز بجميعه وليس ببعضه ، ومعنى هذا : أن بعض القرآن غير معجز كالسورة الواحدة أو الآية الواحدة .

٣ – ذهب بعض المعتزلة إلى أن كل سورة برأسها معجزة .[٢]

٤ – ذهب قوم إلى أن الإعجاز لا يحصل بآية ، بل يشترط الآيات الكثيرة .

٥ – ذهب قوم إلى أن الإعجاز يتعلق بقليل القرآن وكثيره ، واستدل أصحاب هذا الرأى بقوله تعالى : ﴿ فليأتوا بحديث مثله إن كانوا صادقين ﴾ [الطور : ٣٤] ، ورد الإمام السيوطى على هذا الرأى نقلا عن القاضى عياض فقال : ولا دلالة فى الآية ؛ لأن الحديث التام لا تتحصل حكايته فى أقل من كلمات سورة قصيرة ، .[٣]

وأرجح الآراء هو الأول ؛ لأن الله تحدى العرب فى آخر مراحل التحدى أن يأتوا بسورة من مثله ، والسورة تطلق على الطويلة ، والقصيرة ، وأقل سور القرآن سورة ﴿ إنا أعطيناك الكوثر ﴾ فلو كانت هناك آية طويلة ، أو آيات تقدر حروفها بسورة الكوثر لوقع بها التحدى ، لأنه يطلق على مدلولها حديث .

---

(١) الإتقان ٤٧٣ .
(٢) إعجاز القرآن ١٥١/٢ .
(٣) الإتقان ٤٧٣ .

٩ - أوجه إعجاز القرآن الكريم

بعد أن عرفنا معنى المعجزة ، وإعجاز القرآن الكريم ، والمراد من إعجازه ، ومراحل التحدى بالقرآن ، والقدر المعجز منه ، بقى أن أتحدث عن أوجه إعجاز القرآن الكريم ، وإن الناظر فى كتاب الله تعالى تتراءى له وجوه كثيرة مختلفة ، كلها مما اشتمل عليه كتاب الله تبارك وتعالى . ومنها :

أ - لغته وأسلوبه :

جاء القرآن الكريم بأسلوب رائع خلاب ، يأخذ بالعقول والألباب ، أعجز أساطين البيان ، وأخرس كل لسان ، فى أمة أجمع العلماء على أنها بلغت الذروة فى هذا الميدان ، وإذا كان من وصل الذروة فى الفصاحة قد عجزوا عن معارضة القرآن ، فغيرهم من هم دونهم أعجز، ولقد مرت على اللغة العربية من عهد نزول القرآن الكريم إلى عصرنا أحوال مختلفة ، بين علو وانخفاض ، وحركة وجمود ، والقرآن فى كل هذه الأحوال ثابت فى عليائه ، يشع نورا ، ويسيل رقة وعذوبة ، كما قال شاهد من أعدائه : « إن له لحلاوة ، وإن عليه لطلاوة ، وإن أعلاه لمثمره ، وإن أسفله لمغدق ، وإن يعلو ولا يعلى» هذه شهادة عدو ، والفضل ما شهد به الأعداء .

نظم بديع يخالف كل نظم معهود فى لسان العرب من شعر ونثر ، فقد روى مسلم فى صحيحه أن أنيسا أخا أبى ذر قال لأبى ذر : لقيت رجلا بمكة على دينك يزعم أن الله أرسله ، قلت : فما يقول الناس ؟ قال: يقولون : شاعر ، كاهن ، ساحر - وكان أنيس أحد الشعراء - قال

أنيس : لقد سمعت قول الكهنة ، فما هو بقولهم ، ولقد وضعت قوله على أقراء الشعر ، فلم يلتئم على لسان أحد بعدى أنه شعر ، والله إنه لصادق ، وإنهم لكاذبون ». [1]

أما جزالة الألفاظ فإن من يتأملها يتأكد بأنها لا تصح من مخلوق بحال ، يقول الإمام القرطبى نقلا عن ابن الحصار :

« وهذه الثلاثة من النظم ، والأسلوب ، والجزالة ، لازمة كل سورة ، بل هى لازمة كل آية ، وبمجموع هذه الثلاثة يتميز مسموع كل آية وكل سورة عن سائر كلام البشر ، وبها وقع التحدى والتعجيز ، ومع هذا فكل سورة تنفرد بهذه الثلاثة ، من غير أن يضاف إليها أمر من الوجوه الأخرى ». [2]

ب - طريقة تأليفه :

نزل القرآن الكريم على قلب رسول الله - صلى الله عليه وسلم - منجما ، فى أكثر من عشرين عاما ، وكان كلما نزل شئ من القرآن أرشد رسول الله - صلى الله عليه وسلم - إلى مكانه ، فيقول : ضعوا هذه الآيات فى مكان كذا من سورة كذا ، وبعد أن قبض رسول الله - صلى الله عليه وسلم - تم جمع القرآن الكريم فى عهد أبى بكر ، وفى عهد عثمان - رضى الله عنهما - وفق ما تركه رسول الله - صلى الله عليه وسلم - من ترتيب الآيات ، وترتيب السور على ما كان منه فى العرضة الأخيرة للقرآن الكريم ، فى العام الذى قبض فيه عندما

---

(١) صحيح مسلم ٥١٧/٧ - ٥١٨ ك الفضائل باب من فضائل أبى ذر .

(٢) تفسير القرطبى ٩٠/١ .

عارضه جبريل بالقرآن مرتين ، ومن ينظر فى القرآن الكريم يجده كله وحدة مترابطة ، حتى إنه لا يخطر على باله أنه نزل منجما ، فهناك ترابط بين سوره ، فلكل سورة ارتباط بما قبلها وبما بعدها ، حتى الآيات التى نزلت فى أزمنة مختلفة نجد بينها تناسقا وترابطا ، ترابط المبنى ، ودقة المعنى ، وتمام الوحدة الفنية ، مما لا يقدر أحد من البشر أن يأتى بأقله فى كتاب من تأليفه ، أو خطبة من خطبه .

يقول الإمام الزركشى :

« والصحيح أن الإتيان بمثل القرآن ، لم يكن قط فى قدرة أحد من المخلوقين ، ولهذا ترى البليغ ينقح الخطبة أو القصيدة حولا ، ثم ينظر فيها فيغير فيها ، وهلم جرا ، وكتاب الله سبحانه وتعالى لو نزعت منه لفظة ، ثم أدير لسان العرب على لفظة أحسن منها لم توجد » .(1)

ويقول الدكتور غازى عناية :

« القرآن الكريم جيد السبك ، ومحكم السرد ، وعلى قدر كبير من الإحكام والترابط ، والتناسب من غير تفكك، ولا تحلل ، ولا تخاذل ، ولا تنافر ، يظهر هذا جليا واضحا فى تناول القرآن فى أسلوب موضوعات شتى ، ينتقل من موضوع لآخر ، ومن مقصد لغيره ، ومن تشريع إلى قصص إلى جدل إلى وصف ، وأسلوبه على تماسكه ، وتناسق وحداته يوصل بها شواهد إعجازه اللغوى من غير ضعف أو فتور ، أو تناقض ، أو خلل ، أو ملل » .(2)

---

(1) انظر البرهان ٢/١٠٧ .

(2) هدى الفرقان ٣/٢٩٣ .

جـ - علومه ومعارفه :

اشتمل القرآن الكريم على علوم ومعارف ، فى هداية الخلق إلى الحق ، بلغت الغاية فى الوصول إلى الهدف ، معتمدا على الحجة الناصعة ، والبراهين الدامغة ، التى تشير إلى أن القرآن الكريم كلام الله تعالى ، ولا يمكن أن يتأتى به النبى الأمى من عند نفسه ، ولقد جمع من العلوم والمعارف ما يصلح أحوال البشرية ، ويأخذ بيدها من مهاوى الرذيلة إلى ذروة الفضيلة ، فاشتمل على ما ينظم التعامل بين الناس ، ويحكم معاملاتهم حتى فى الحروب ، ويربط بين الدين والدنيا ويشبع حاجات القلب والعقل ، من غير إهمال لجانب منها .

د - الإعجاز التشريعى :

المراد بالإعجاز التشريعى للقرآن الكريم أنه قد وفى بحاجات البشر جميعا ، فكل إنسان عندما يبحث فى كتاب الله تعالى يجد غايته ومقصده ، نجده أولا : قد أصلح العقائد بتوجيه الناس إلى العقيدة الصحيحة التى ضل فيها اليهود والنصارى حيث قالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ، يقول الله تعالى : ﴿ وقالت اليهود عزيز ابن الله وقالت النصارى المسيح ابن الله ذلك قولهم بأفواههم يضاهئون قول الذين كفروا من قبل قاتلهم الله أنى يؤفكون ﴾ [التوبة : ٣٠] وقالت النصارى : الله ثالث ثلاثة يقول الله تعالى : ﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم ﴾ [المائدة : ٧٣] وأصلح العقيدة التى ضل فيها الوثنيون والمجوس ، فأثبت بالأدلة القاطعة ، والبراهين الساطعة أن خالق الكون إله واحد ، لم يتخذ صاحبة ولا ولدا ، وهو الإله

المستحق للعبادة ، قال تعالى : ﴿ قل هو الله أحد ، الله الصمد ، لم يلد ولم يولد ، ولم يكن له كفوا أحد ﴾ [الإخلاص] وقال : ﴿ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فسبحان الله رب العرش عما يصفون ﴾ [الأنبياء : ٢٢] وقال : ﴿ ما اتخذ الله من ولد وما كان معه من إله إذن لذهب كل إله بما خلق ولعلا بعضهم على بعض سبحان الله عما يصفون ﴾ [المؤمنون : ٩١] وقال: ﴿ أفمن يخلق كمن لا يخلق أفلا تذكرون ﴾ [النحل : ١٧] وذكر شواهد ذلك من الكون الذى تراه أعيننا ، وتتدبره عقولنا ، ولا مجال فيه للإنكار ، كما أثبت عقيدة البعث التى أنكرها مشركو العرب ، فذكر أن الله الذى خلقهم أول مرة من العدم ، قادر على أن يعيدهم فقال : ﴿ وهو الذى يبدأ الخلق ثم يعيده وهو أهون عليه ﴾ [الروم : ٢٧] وذكر أدلة فى الكون يستدل بها على البعث يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وترى الأرض هامدة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت وأنبتت من كل زوج بهيج ، ذلك بأن الله هو الحق وأنه يحيى الموتى وأنه على كل شىء قدير ﴾ [الحج : ٥-٦] ويقول: ﴿ ومن آياته أنك ترى الأرض خاشعة فإذا أنزلنا عليها الماء اهتزت وربت إن الذى أحياها لمحى الموتى إنه على كل شىء قدير ﴾ [فصلت : ٣٩] .

ونجده ثانيا : قد أصلح العبادات حين فرض الفرائض التى تصلح أحوال الخلق ، وتقربهم من الحق ، ففرض الصلاة ، وأمر بالمحافظة عليها كاملة فى أوقاتها ، وفرض الزكاة ليحقق للمجتمع التكافل ، ويطهر النفس من الشح والبخل ، وفرض الصوم ليغرس فينا التقوى بأسمى معانيها ، وشرع الحج لما فيه من معان سامية ؛ ليحقق للمجتمع ما يضمن أمنه وسلامته وترابطه .

ونجده ثالثا : قد أصلح الأخلاق بما شرع من تشريعات تحكم حياة الناس ، ترغبهم فى الفضائل ، وتنفرهم من الرذائل ، وتجعل المجتمع مترابطا ، فأزال الفوارق ، وحرم ما يسبب الفرقة ، وآخى بين المسلمين، وشرع ما يحافظ على هذه الأخوة ، فقال : ﴿ يأيها الناس إنا خلقناكم من ذكر وأنثى وجعلناكم شعوبا وقبائل لتعارفوا ﴾ [الحجرات : ١٣] وقال : ﴿ يأيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم ولا تجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا ﴾ [الحجرات : ١٢] وغير ذلك مما امتلأت به سورة النور والحجرات .

ونجده رابعا : قد أصلح الحكم والسياسة ، فشرع المعاملات ، وحد الحدود وأمر الحكام بالشورى ووجهنا إلى طاعة أولى الأمر ، وحرم الغش والربا ، والزنا ، والقذف ، والسرقة .

يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وشاورهم فى الأمر ﴾ [آل عمران : ١٥٩] وقال : ﴿وأمرهم شورى بينهم ﴾ [الشورى : ٣٨] ويقول سبحانه وتعالى: ﴿ ولكم في القصاص حياة ﴾ [البقرة : ١٧٩] وقال : ﴿ وأحل الله البيع وحرم الربا ﴾ [البقرة : ٢٧٥] وقال : ﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون ﴾ [النور : ٤] وقال : ﴿ ولا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل وتدلوا بها إلى الحكام لتأكلوا فريقا من أموال الناس بالإثم وأنتم تعلمون ﴾ [البقرة : ١٨٨] .

ونجده خامسا : قد أصلح جانب الأسرة ، حين حث على الزواج ، وحرم من لا يحل الزواج بهن ، وأباح تعدد الزوجات بشروطه،

وحين شرع أحكام الطلاق ، والظهار ، واللعان ، والخلع ، والنفقة ، والعدة ، والميراث ، الوصية ، وجعل المرأة ركنا أساسيا فى الأسرة بعد أن لم تكن شيئا ذا قيمة فى المجتمع الجاهلى .

يقول تعالى ﴿ فانكحوا ما طاب لكم من النساء مثنى وثلاث ورباع فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم ﴾ [النساء : ٣] وقال : ﴿ ولا تنكحوا ما نكح آباؤكم من النساء إلا ما قد سلف إنه كان فاحشة ومقتا وساء سبيلا ، حرمت عليكم أمهاتكم وبناتكم وأخواتكم وعماتكم وخالاتكم وبنات الأخ وبنات الأخت وأمهاتكم اللاتى أرضعنكم وأخواتكم من الرضاعة وأمهات نسائكم وربائبكم اللاتى فى حجوركم من نسائكم اللاتى دخلتم بهن فإن لم تكونوا دخلتم بهن فلا جناح عليكم وحلائل أبنائكم الذين من أصلابكم وأن تجمعوا بين الأختين إلا ما قد سلف إن الله غفورا رحيما ﴾ [النساء : ٢٢ - ٢٣] وغير ذلك من الآيات.

ونجده سادسا : قد أصلح الجانب المالى والإقتصادى ، فوجهنا إلى العمل الشريف ، والكسب الحلال ، وأمرنا بالمحافظة على الأموال ، فنهانا عن أكل الربا ، وأكل أموالنا بالباطل ، ونهى عن الإسراف والتبذير ، وأباح الرهن ، وأمر بكتابة الدين والإشهاد عليه .

يقول تعالى : ﴿ فإذا قضيت الصلاة فانتشروا فى الأرض وابتغوا من فضل الله واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون ﴾ [الجمعة : ١٠] وقال : ﴿ هو الذى جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا فى مناكبها وكلوا من رزقه وإليه النشور ﴾ [الملك : ١٥] وقال : ﴿ يأيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ﴾ [النساء : ٢٩] وقال :

﴿ ولا تبذر تبذيرا ، إن المبذرين كانوا إخوان الشياطين وكان الشيطان لربه كفورا ﴾ [الإسراء : ٢٦ ، ٢٧] . وقال : ﴿ يأيها الذين آمنوا إذا تداينتم بدين إلى أجل مسمى فاكتبوه ، وليكتب بينكم كاتب بالعدل ﴾ [البقرة : ٢٨٢] وقال : ﴿ وإن كنتم على سفر ولم تجدوا كاتبا فرهان مقبوضة ﴾ [البقرة : ٢٨٣] .

ونجده سابعا : قد أصلح الجانب الحربى ، فأمرنا بعدم الاعتداء على الآخرين ، وأمرنا بحفظ العهود والمواثيق ، والإحسان إلى من هم ليسوا على ديننا ما داموا لم يعتدوا علينا ، ودعانا إلى الميل إلى السلام .

يقول تعالى : ﴿ وقاتلوا فى سبيل الله الذين يقاتلونكم ولا تعتدوا إن الله لا يحب المعتدين ﴾ [البقرة : ١٩٠] وقال : ﴿ يأيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ولا تتبعوا خطوات الشيطان إنه لكم عدو مبين ﴾ [البقرة : ٢٠٨] وقال : ﴿ لا ينهاكم الله عن الذين لم يقاتلوكم فى الدين ولم يخرجوكم من دياركم أن تبروهم وتقسطوا إليهم إن الله يحب المقسطين ﴾ [الممتحنة: ٨] وقال : ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله إنه هو السميع العليم ﴾ [الأنفال : ٦١] ويقول : ﴿ إلا الذين عاهدتم من المشركين ثم لم ينقصوكم شيئا ولم يظاهروا عليكم أحدا فأتموا إليهم عهدهم إلى مدتهم إن الله يحب المتقين ﴾ [التوبة : ٤] .

وهكذا إعجاز تشريعى وفى بحاجات البشر ، فلم يترك جانبا إلا وأصلحه على أكمل وجه ، وهذا لم يقم به كتاب سابق ، أو مصلح ؛ لأنه إن أصلح جانبا أهمل جوانب كثيرة ، أما القرآن فإنه أصلح جميع الجوانب دون إهمال لجانب منها وصدق ربنا – عز وجل – حيث يقول ﴿ ما فرطنا فى الكتاب من شىء ﴾ [الأنعام : ٣٨] .

يقول الشيخ الزرقاني :

« هذا هو التنزيل الحكيم ، نقرؤه فإذا بحر العلوم والمعارف ، متلاطم زاخر ، وإذا روح الإصلاح فيه قوى قاهر ، ثم إذا هو يجمع الكمال من أطرافه ، فبينا تراه يصلح ما أفسده الفلاسفة بفلسفتهم ، إذ تراه يهدم ما تردى فيه الوثنيون بشركهم ، بينما تراه يصحح ما حرفه أهل الأديان فى دياناتهم ، إذ تراه يقدم للإنسانية مزيجا صالحا من عقيدة راشدة ترفع همة العبد ، وعبادة قوية تطهر نفس الإنسان ، وأخلاق عالية تؤهل المرء لأن يكون خليفة الله فى الأرض ، وأحكام شخصية ، ومدنية ، واجتماعية تكفل حماية المجتمع من الفوضى والفساد ، دينا يشبع حاجات العقل والقلب ، ويوفق بين مطالب الروح والجسد ، ويؤلف بين مصالح الدين والدنيا ، ويجمع بين عز الآخرة والأولى فى قصد واعتدال » .[1]

هـ - الإعجاز الغيبى :

الغيب : كل ما غاب عن الحس وعلم الإنسان.[2] فإذا تحدث القرآن الكريم عن غيب الماضى أو الحاضر أو المستقبل ، فإن ذلك يدل على أن القرآن الكريم من عند علام الغيوب وليس من عند محمد - صلى الله عليه وسلم - ؛ لأنه سبحانه وتعالى هو علام الغيوب ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ وعنده مفاتح الغيب لا يعلمها إلا هو ويعلم ما فى البر

---

(١) مناهل العرفان ٣٤٢/٢ .

(٢) انظر مفردات الراغب ٣٦٦ .

والبحر وما تسقط من ورقة إلا يعلمها ولا حبة فى ظلمات الأرض ولا رطب ولا يابس إلا فى كتاب مبين ﴾ [الأنعام : ٥٩] ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحداً ، إلا من ارتضى من رسول ﴾ [الجن : ٢٦-٢٧] فإذا أخبر القرآن الكريم عن غيب مضى لم يكن الرسول – صلى الله عليه وسلم – قد شهده أو علمه زمن وقوعه ، أو عن غيب حاضر أو عن غيب مستقبل ، فإن ذلك يدل على إعجاز القرآن ؛ لأن هذا الأمر ليس فى مقدور البشر ، وإنما هو مما اختص به علم الله .

والغيب ينقسم بحسب زمانه إلى ثلاثة أنواع : أ – غيب الماضى . ب – غيب الحاضر . جـ – غيب المستقبل . ولكل نوع أمثلته التى يتأكد بها هذا النوع من الإعجاز .

أ – غيب الماضى : الماضى هو : الوقت الذى يسبق وقت الإنسان . وهذا النوع يتمثل فيما ذكره القرآن الكريم من قصة خلق الأرض والسموات ، وما تحدث عنه من قصص الرسل والأنبياء السابقين ، وقصص الأمم السابقة ، كقصة خلق آدم وحواء ، وقصة نوح، وإبراهيم ، وموسى وهارون ، وعيسى ، وهود ، وصالح ، ولوط ، ويونس ، وإلياس ، وأيوب ، وداود ، وسليمان ، ويوسف – عليهم الصلاة والسلام – وقصة أصحاب الكهف ، والخضر ، ومريم ، وأصحاب الجنة ، وصاحبى الجنتين ، وأصحاب الفيل ، وبلقيس وغير ذلك .

فحين يخبر القرآن عن ذلك يدل على أنه منزل من عند الله تعالى

على قلب نبيه – صلى الله عليه وسلم – ، ولذا يبين الله تعالى عقب قصصه أن محمدا – صلى الله عليه وسلم – لم يكن يعلم شيئا عن إخباره هذا ، يقول الله تعالى : ﴿ وما كنت تتلو من قبله من كتاب ولا تخطه بيمينك إذاً لارتاب المبطلون ﴾ [العنكبوت : ٤٨] .

يقول سبحانه عقب قصة نوح – عليه السلام – : ﴿ تلك من أنباء الغيب نوحيها إليك ما كنت تعلمها أنت ولا قومك من قبل هذا فاصبر إن العاقبة للمتقين ﴾ [هود : ٤٩] ويقول بعد ذكر قصة مريم وعيسى – عليهما السلام – : ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم وما كنت لديهم إذ يختصمون ﴾ [آل عمران : ٤٤] ويقول عقب قصة يوسف – عليه السلام – ﴿ ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ أجمعوا أمرهم وهم يمكرون ﴾ [يوسف : ١٠٢]. يوجه أنظار المشركين إلى ما قص القرآن الكريم ، وأخبر به رسول الله – صلى الله عليه وسلم – من أحوال المكذبين رسلهم ، وكانوا يمرون على آثار ديارهم ، ويعرفون حقيقة ما أخبر به القرآن الكريم بشأنهم ، يقول تعالى : ﴿ قل سيروا فى الأرض ثم انظروا كيف كان عاقبة المكذبين ﴾ [الأنعام : ١١] .

ب – غيب الحاضر : يراد بهذا النوع ما يتصل بالله تعالى ، والملائكة ، والجن ، والجنة والنار ، مما لم يكن للرسول – صلى الله عليه وسلم – سبيل إلى معرفته إلا بالوحى ، ويراد به أيضا ما كان من أمر المنافقين الذين فضح الله أمرهم ؛ وفى القرآن الكريم كثير من هذا النوع مثال ذلك : ما أخبر الله تعالى عن المنافقين فى قوله تعالى : ﴿ ومن

الناس من يعجبك قوله فى الحياة الدنيا ويشهد الله على ما فى قلبه وهو ألد الخصام ، وإذا تولى سعى فى الأرض ليفسد فيها ويهلك الحرث والنسل والله لا يحب الفساد ﴾ [البقرة : ٢٠٤ - ٢٠٥] ذكر الإمام السيوطى فى أسباب نزول الآية أن الأخنس بن شريق أقبل إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - وأظهر له الإسلام ، فأعجبه ذلك منه ، ثم خرج فمر بزرع لقوم من المسلمين وحمر ، فأحرق الزرع وعقر الحمر ، فأنزل الله الآية .[1] وهكذا فضح الله أمره بنزول الآية ، وإخبار القرآن إخبار عن غيب لا يعلمه إلا الله تعالى ، ومن إخبار القرآن الكريم عن المنافقين ما ذكر الله فى كتابه يقول عن أصحاب مسجد الضرار : ﴿ والذين اتخذوا مسجدا ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون ﴾ [التوبة : ١٠٧] يقول الإمام القرطبى : « قال أهل التفسير : إن بنى عمرو بن عوف اتخذوا مسجد قباء ، وبعثوا للنبى - صلى الله عليه وسلم - أن يأتيهم ، فأتاهم فصلى فيه ، فحسدهم إخوانهم بنو غنم بن عوف ، وقالوا : نبنى مسجدا ونبعث إلى النبى - صلى الله عليه وسلم - يأتينا فيصلى لنا كما صلى فى مسجد إخواننا ، ويصلى فيه أبو عامر إذا قدم من الشام ، فأتوا النبى - صلى الله عليه وسلم - وهو يتجهز إلى تبوك ، فقالوا : يا رسول الله قد بنينا مسجداً لذى الحاجة ، والعلة والليلة المطيرة ، ونحب أن تصلى لنا فيه ، وتدعو بالبركة ، فقال النبى - صلى الله عليه وسلم - : « إنى على سفر وحال شغل ، فلو قدمنا لأتيناكم وصلينا لكم فيه ، فلما انصرف النبى - صلى الله عليه وسلم - من تبوك أتوه وقد

---

(١) لباب النقول للسيوطى ٥٢ .

فرغوا منه ، وصلوا فيه الجمعة والسبت والأحد ، فدعا بقميصه ليلبسه ويأتيهم ، فنزل عليه القرآن بخبر مسجد الضرار ؛ فدعا النبى - صلى الله عليه وسلم - مالك بن الدخشم ، ومعن بن عدى ، وعامر بن السكن ، ووحشيا قاتل حمزة ، فقال : « انطلقوا إلى هذا المسجد الظالم أهله فاهدموه وأحرقوه ، فخرجوا مسرعين ، وأخرج مالك بن الدخشم من منزله شعلة نار ، ونهضوا فأحرقوا المسجد وهدموه » .[1]

ومثله ما ذكره القرآن الكريم فى تخلف الأعراب عن الانطلاق مع المسلمين عام الحديبية . يقول الله تعالى : ﴿ سيقول لك المخلفون من الأعراب شغلتنا أموالنا وأهلونا فاستغفر لنا يقولون بألسنتهم ما ليس فى قلوبهم قل فمن يملك لكم من الله شيئا إن أراد بكم ضرا أو أراد بكم نفعا بل كان الله بما تعملون خبيرا ، بل ظننتم أن لن ينقلب الرسول والمؤمنون إلى أهليهم أبدا وزين ذلك فى قلوبكم وظننتم ظن السوء وكنتم قوماً بورا ﴾ [الفتح : ١١-١٢] فإظهار ذلك يدل على أن القرآن من عند الله تعالى .

جـ - غيب المستقبل : المستقبل هو الوقت الذى يلى الوقت الحاضر ، وغيب المستقبل لا يطلع عليه إلا الله تعالى ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ عالم الغيب فلا يظهر على غيبه أحدا ، إلا من ارتضى من رسول فإنه يسلك من بين يديه ومن خلفه رصدا ﴾ [الجن : ٢٦-٢٧] ، وإخبار القرآن الكريم عن غيب المستقبل دليل على أنه معجزة من عند الله تعالى ، ولقد وقع من هذا النوع إخبار يقوم به التحدى ، ومن ذلك

---

(١) تفسير القرطبى ٨/٢٣٥ .

ما ذكره القرآن الكريم فى شأن المخلفين من أعراب مزينة ، وجهينة ، وغفار ، وأشجع ، وأسلم ، والديل ، عندما أخبر بأنهم سيدعون إلى قوم أولى بأس شديد يقاتلونهم أو يسلمون . قال سبحانه وتعالى : ﴿ قل للمخلفين من الأعراب ستدعون إلى قوم أولى بأس شديد تقاتلونهم أو يسلمون فإن تطيعوا يؤتكم الله أجرا حسنا وإن تتولوا كما توليتم من قبل يعذبكم عذابا أليما ﴾ [الفتح : ١٦] ومنه أيضا تحديه لليهود عندما طلب منهم أن يتمنوا الموت ، ثم أخبر أنهم لن يتمنوه أبدا ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ قل يأيها الذين هادوا إن زعمتم أنكم أولياء لله من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ، ولا يتمنونه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ﴾ [الجمعة : ٦ ، ٧] ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين ، ولن يتمنوه أبدا بما قدمت أيديهم والله عليم بالظالمين ، ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ... ﴾ [البقرة : ٩٤-٩٦] فدل ذلك على أن القرآن من عند الله تعالى وأن الإخبار بعدم تمنيهم الموت ونفيه على التأبيد دليل على ذلك .

ومن ذلك أيضا ما أخبر به سبحانه عن أبى لهب بأنه سيموت كافرا عندما أخبر أنه سيصلى نارا ذات لهب ، ولو استطاع أن يقابل هذا التحدى لأسلم ، ليظهر كذب محمد – صلى الله عليه وسلم – فيما جاء به ، لكن ذلك لم يحدث لأن القرآن من عند الله وليس من عند محمد – صلى الله عليه وسلم – قال تعالى : ﴿ تبت يدا أبى لهب وتب ، ما أغنى عنه ماله وما كسب ، سيصلى نارا ذات لهب ، وامرأته حمالة الحطب ، فى جيدها حبل من مسد ﴾ [المسد : ١-٥] .

ومن غيب المستقبل نوع أخبر عنه القرآن وتحقق فى حياة النبى –

- صلى الله عليه وسلم - ، يقول الله تعالى فى سورة القمر : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ [القمر : ٤٥] فهذه السورة مكية ، والآية تبين أن الله تعالى سيهزم الجمع المشرك ، ولم يكن فى مكة قتال ، ذكر الإمام الزمخشرى فى الكشاف عن عكرمة ، قال : لما نزلت هذه الآية (سيهزم الجمع) قال عمر - رضى الله عنه - أى جمع يهزم ؟ فلما رأى رسول الله - صلى الله عليه وسلم يثب فى الدروع ويقول : ﴿ سيهزم الجمع ويولون الدبر ﴾ عرف تأويلها ، .(١)

ومثاله أيضا ، ما أخبر عنه القرآن الكريم من دخول الرسول - صلى الله عليه وسلم - والمسلمين المسجد الحرام آمنين محلقين رءوسهم ومقصرين لا يخافون ،كان ذلك عام الحديبية ، وتحقق ذلك فى العام السابع عام عمرة القضاء ، قال تعالى : ﴿ لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق لتدخلن المسجد الحرام إن شاء الله آمنين محلقين رءوسكم ومقصرين لا تخافون فعلم ما لم تعلموا فجعل من دون ذلك فتحا قريبا ﴾ [الفتح : ٢٧] .

ومن ذلك ما أخبر به القرآن الكريم عن هزيمة الفرس الروم ، وأن الروم سيغلبون الفرس فى بضع سنين ، وفعلا تحقق ما أخبر به القرآن الكريم - كما ذكر المفسرون - ، ففرح المسلمون بنصر الله قال تعالى : ﴿ ألم ، غلبت الروم ، فى أدنى الأرض وهم من بعد غلبهم سيغلبون ، فى بضع سنين لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون ، بنصر الله ينصر من يشاء وهو العزيز الرحيم ﴾ [الروم : ١-٥] روى

---

(١) تفسير الكشاف ٤/٤٤٠ .

الترمذى فى سننه عن ابن عباس فى قوله تعالى : (ألم ، غلبت الروم)قال : كان المشركون يحبون أن تظهر فارس على الروم ، لأنهم كانوا أصحاب أوثان ، وكان المسلمون يحبون أن تظهر الروم على فارس لأنهم أصحاب كتاب ، فذكروه لأبى بكر ، فذكره أبو بكر لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - فقال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « أما إنهم سيغلبون ، فذكره أبو بكر لهم ، فقالوا : اجعل بيننا وبينك أجلا ، فإن ظهرنا كان كذا وكذا ، وإن ظهرتم كان لكم كذا وكذا ، فجعل بينهم أجلا خمس سنين ، فلم يظهروا ، فذكر ذلك أبو بكر لرسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، فقال : « ألا جعلته » - أراه قال - : دون العشرة ، فظهرت الروم بعد ذلك ، فذلك قوله : (ألم ، غلبت الروم) فغلبت ، ثم غلبت بعد بقول الله : ﴿ لله الأمر من قبل ومن بعد ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله ﴾.[1]

وغير ذلك من أمور فى الفلك والطب وغيرهما ، أخبر عنها القرآن الكريم ويكشف عنها العلم الحديث ، ويؤكد أن القرآن من عند الله تعالى.

و - إعجاز القرآن فى هيبته :

ويراد بذلك الهيبة التى تصيب قلوب سامعيه ، وتعتريهم عندتلاوته أو سماعه ، وذلك لأن القرآن الكريم أثر فى سامعيه تأثيرا كبيرا ، ونجح نجاحا خارقا للعادة فى أن يصل إلى الأعماق ، ويفعل ما لم يفعله غيره من كتب الله تعالى السابقة ، ولذا قالوا : ﴿ إن هذا إلا

(١) سنن الترمذى ٥/٣٤٣ - ٣٤٤ ك التفسير باب سورة الروم . قال : حديث حسن صحيح غريب .

سحر يؤثر ﴾ [المدثر ٢٤:٧٤] ، وخير شاهد على هذا : الإصلاح العام الذى جاء به القرآن الكريم ، والتغيير الذى حدث ولم يحدث فى أى عهد من العهود القديمة ، ولم يحدثه أى كتاب من كتب الفلاسفة أو المصلحين .

لقد أثر القرآن الكريم على سامعيه من أوليائه وأعدائه ، أما أعداؤه فمنهم من تأثر بسماعه فدخل فى الإسلام ، ومنهم من أعجب به وشهد بعظمته ولكنه ظل على كفره استكبارا وعنادا ومن الذين أثر فيهم القرآن عمر بن الخطاب ، وجبير بن مطعم – رضى الله عنهما – . فعندما قرأ عمر الصحيفة التى فيها الآيات من سورة طه أثرت عليه فخرج من بيت أخته إلى رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى دار الأرقم بن أبى الأرقم معلنا إسلامه ، أما جبير بن مطعم فحين قدم المدينة ليكلم الرسول – صلى الله عليه وسلم – فى أسارى بدر ، ذهب إليه وهو يصلى بأصحابه المغرب ، وصوته يخرج من المسجد ، فسمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقرأ قول الله تعالى : ﴿ والطور وكتاب مسطور ﴾ فلما وصل رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فى قراءته إلى قول الله تعالى : ﴿ إن عذاب ربك لواقع ، ما له من دافع ﴾ أسلم خوفا من نزول العذاب ، وما كان يظن أنه يقوم من مكانه حتى يقع به العذاب ، فلما وصل إلى قول الله تعالى : ﴿ أم خلقوا من غير شىء أم هم الخالقون ، أم خلقوا السموات والأرض بل لا يوقنون ، أم عندهم خزائن ربك أم هم المسيطرون ﴾ يقول : كاد قلبى أن يطير – أى عند سماع هذه الآيات – وذلك أول ما وقر الإسلام فى قلبه ، .[1]

---

(١) الإتقان ٤٧٢ – ٤٧٣ .

أما عتبة بن ربيعة فعندما سمع رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يقرأ سورة ، فصلت ، حتى وصل إلى قوله تعالى : ﴿ فإن أعرضوا فقل أنذرتكم صاعقة مثل صاعقة عاد وثمود ﴾ [فصلت : ١٣] أمسك بفيه ، وناشده بالرحم أن يسكت مخافة أن تصيبه صاعقة مثل التى أصابت عاداً وثمود ، وقال ما قال عندما سئل عن القرآن شاهدا بعظمته ، لكنه على الرغم من ذلك ظل على كفره عنادا واستكبارا .

فمن نظر إلي هذا التأثير عرف أن القرآن الكريم لا يمكن أن يكون صادرا عن البشر ؛ لأن الواحد لا يستطيع أن يؤثر على الجميع .

أما بالنسبة لتأثير القرآن على أوليائه فإننا نشاهد فيهم تعظيما له عند سماعه ، وخضوعا لآياته ، ودفاعا عنه ، وتنافساً فى حفظه ، وكثير من المسلمين فاضت أرواحهم عندما سمعوا آيات الله تتلى .

٧ – من وجوه إعجازه : أن قارئه لا يمله ، وسامعه لا يُمجه [(١)] ، بل الإكباب على تلاوته يزيده حلاوة ، وترديده يوجب له محبة ، وغيره من الكلام يعادى إذا أعيد ، ويمل مع الترديد [(٢)] ، ولقد وصف رسول الله – صلى الله عليه وسلم – القرآن فقال :

« هو الذى لا تزيغ به الأهواء ، ولا تلتبس به الألسنة ، ولا يشبع منه العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد ، ولا تنقضى عجائبه » .[(٣)]

---

(١) أى لا يتركه لعدم الرغبة فيه . انظر القاموس المحيط ٢١٤/١ فصل الميم باب الجيم.

(٢) الشفا ٢٣٣/١.

(٣) سنن الترمذى ١٧٢/٥ – ١٧٣ ك فضائل القرآن ، باب ما جاء فى فضل القرآن .

وهذا الوجه من أوجه الإعجاز يلمسه كل واحد منا ، فعندما نسمع قصيدة أو شيئا ويتكرر سماعنا لهذا الشيء نُحس بالملل ، والسأم نحوه حتى ولو كان من أحب الأشياء إلينا أول الأمر ، أما القرآن الكريم ، فإن الإنسان يتكرر سماعه للآية أو الآيات أو السور فيجد حلاوة ولذة في هذا السماع ، وكأنه لم يستمع إليها من قبل ، والدليل على ذلك أننا نكرر قراءة سورة الفاتحة في صلاتنا مرات كثيرة ، في كل صلاة أكثر من مرة في صلاة الفريضة ، وصلاة النافلة ، وما أصابنا السأم والملل ، لكن الشوق والرغبة في القراءة والسماع يملكان عقولنا وأسماعنا ، وهذا أمر خارق للعادة التي اعتادها الناس في السماع ، وهذه هي المعجزة .

ز – استمرار الفصاحة والبلاغة فيه من جميع انحائها ، في جميعه استمرارا لا توجد له فترة ، ولا يقدر عليه أحد من البشر .[1]

لقد اعترف العرب ببلاغة القرآن الكريم ، المشرك قبل المسلم ، وهذه الفصاحة وتلك البلاغة مستمرة شامخة ، تشهد بإعجاز القرآن الكريم في كل عصر ، إلى أن تقوم الساعة ، أما بلاغة البشر ولغة العرب فإنها تتأرجح بين علو وانحطاط ، وقوة وضعف ، تؤثر فيها الظروف والأحوال ، وهي بكل المقاييس لا تصح أن يعقد الإنسان بينها وبين لغة القرآن الكريم وأسلوبه أدنى مقارنة ، فنحن نرى الشاعر أو الخطيب يظل ينقح قصيدته ، أو موضوع خطبته وقتا طويلا ، وبعد انقضاء فترة الإعداد والتنقيح يقوم بتغيير وإصلاح أو تصحيح ، أما

---

(١) انظر البرهان في علوم القرآن ٢/١٠٩ .

القرآن الكريم فإن فصاحته وبلاغته ، وروعته تظل فى عليائها رائعة تأخذ بالعقول ، وتسحر الألباب ، وتعمل الفكر ، وتسيطر عليه ، وما ذلك إلا لأن القرآن الكريم كلام الله تعالى ، ومعجزة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الخالدة التى تخاطب العقول إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وهناك أوجه أخرى من أوجه الإعجاز لم أتعرض لها بالحديث نظراً لاختلاف العلماء فيها ، وما تحدثت عنه فيه الكفاية فى إظهار أوجه إعجاز القرآن الكريم .

١٠ - بعض من حاولوا محاكاة القرآن الكريم

لم يعرف التاريخ أحداً عارض القرآن الكريم أو حاول معارضته ؛ لأن أعداء الإسلام عرفوا قدره وبلاغته ، وعرفوا أن ذلك ليس فى مقدورهم ؛ لأنهم بشر والقرآن فوق قدرة البشر ، فشهدوا بذلك ، وهى شهادة لها وزنها فى جانب إظهار عظمة القرآن الكريم .

على أنه من الثابت أن هناك بعضا من الناس حالوا محاكاة نظم القرآن الكريم وأسلوبه ، ولكن شتان ما بين الأسلوبين ، وشتان ما بين النظمين ، فنظم القرآن الكريم نظم رصين ، ومعناه بليغ مبين ، أما نظم المحاكاة فنظم مخجل ، وقول مضحك إضحاك الأسف لهؤلاء الذين عميت عيونهم ، وعييت أفهامهم عن الحق الواضح حتى تجرءوا على محاكاة القرآن الكريم .

يقول القاضى الباقلانى فى كتابه : إعجاز القرآن :

« فأما كلام مسيلمة الكذاب ، وما زعم أنه قرآن فهو أخس من أن نشتغل به ، وأسخف من أن نفكر فيه ، وإنما نقلنا منه طرفا ليتعجب القارئ ، وليتبصر الناظر ، فإنه على سخافته قد أضل ، وعلى ركاكته قد أذل ، وميدان الجهل واسع ، ومن نظر فيما نقلناه عنه ، وفهم موضع جهله كان جديرا أن يحمد الله على ما رزقه من فهم وآتاه من علم .

كان يقول فى خلاف وقع بين أصحابه أتوه للحكم بينهم :

والليل الأطخم [١] ، والذئب الأدلم [٢] ، والجذع الأزلم [٣]

---

(١) الأطخم : شديد السواد . القاموس المحيط ٤/١٤٥ .

(٢) الأدلم : ما به من سواد . نفسه ٤/١٢٧ .

(٣) الأزلم : مقطوع طرف الأذن ، يفعل ذلك بكرام الإبل والشاه . نفسه ٤/١٢٧ .

ما انتهكت أسيد من محرم . وقال : والليل الدامس ، والذئب الهامس[1] ، ما قطعت أسيد من رطب ولا يابس . وكان يقول : والشاة السوداء ، واللبن الأبيض إنه لعجب محض ، وقد حرم المذق فما لكم لا تجتمعون . وكان يقول : ضفدع بنت ضفدعين ، نقى ما تنقين ، أعلاك فى الماء ، وأسفلك فى الطين ، لا الشارب تمنعين ، ولا الماء تكدرين ، لنا نصف الأرض ولقريش نصفها ، ولكن قريشا قوم يعتدون .

وقالت سجاح بنت الحارث بن عقبان – وكانت تتنبأ فاجتمع مسيلمة معها ، فقالت له : ما أوحى إليك ؟ فقال : ألم تر كيف فعل ربك بالحبلى ، أخرج منها نسمة تسعى ، من بين صفاق [2] وحشا ، وقالت : فما بعد ذلك ؟ قال : أوحى إلى أن الله خلق النساء أفواجا ، وجعل الرجال لهن أزواجا ، فنولجهن لنا سخالا نتاجا ، فقالت : أشهد أنك نبى ، .[3]

فمن نظر أى نظر ، وتأمل أدنى تأمل ، يجد سخفا ، وعبثا باطلا يدركه حتى الأطفال الصغار ، وصدق الله العظيم القائل : ﴿ قل لئن اجتمعت الإنس والجن على أن يأتوا بمثل هذا القرآن لا يأتون بمثله ولو كان بعضهم لبعض ظهيرا ﴾ [الإسراء : ٨٨] .

---

(١) الهامس : السيار بالليل بلا فتور . نفسه ٢٤٩/٢ .

(٢) صفاق : الجلد أو ما بين الجلد والمصران أو جلد البطن كله . المصدر السابق ٢٦٢/٣-٢٦٣ .

(٣) إعجاز القرآن للباقلانى هامش الإتقان ٧/٢-٨ بتصرف يسير .

١١ - القول بالصَّرفة

ذهب البعض إلى أن صرف العرب عن معارضة القرآن وجه من أوجه إعجازه ، ويترتب على ذلك ألا يكون فى القرآن أوجه من أوجه الإعجاز وهذا باطل ، وقد سبق أن ذكرت أوجه الإعجاز ، وهذا يدفع هذا الزعم الباطل .

أ - معنى القولة بالصرفة :

اختلف القائلون بالصرفة فى معناها على قولين :

الأول : ذهب أبو إسحاق النظام من المعتزلة ، وأبو إسحاق الإسفراييني من أهل السنة إلى أن : الإعجاز فى الصرف ، بمعنى أن الله تعالى صرف العرب عن معارضة القرآن مع قدرتهم عليها ، فكان هذا الصرف خارقا للعادة .

الثانى : ذهب المرتضى من الشيعة إلى أن الإعجاز فى سلبهم العلوم التى يحتاجون إليها فى المعارضة ، بمعنى : أن الله تعالى سلبهم العلوم التى يحتاجون إليها فى المعارضة ليجيئوا بمثل القرآن .[1]

ب - نشأة هذا القول :

يقول الرافعى : « كان أول ما ظهر من الكلام فى القرآن مقالة تعزى إلى رجل يهودى يسمى : لبيد بن الأعصم ، كان يقول : إن التوراة مخلوقة ، فالقرآن كذلك مخلوق ، ثم أخذها عنه طالوت ابن أخته ، وأشاعها عنه الجعد بن بدان بن سمعان النهدى الذى تنسب إليه

---

(١) هدى الفرقان فى علوم القرآن ٣/ ٢٧٠ بتصرف .

البنانية ، وتلقاها عنه الجعد بن درهم - مؤدب مروان بن محمد آخر خلفاء بنى أمية - وكان زنديقا فاحش الرأى واللسان ، وهو أول من صرح بالإنكار على القرآن والرد عليه ، وجحد أشياء مما فيه ، وأضاف إلى القول بخلقه أن فصاحته غير معجزة ، وأن الناس يقدرون على مثلها ، وعلى أحسن منها ، ولم يقل بذلك أحد قبله ، ولا فشت المقالة بخلق القرآن إلا من بعده ، إذ كان أول من تكلم بها فى دمشق ، وأقبل جماعة من المعتزلة على دراسة كتب الفلسفة اليونانية ، فظهرت لهم آراء وأفكار ، وتفرقوا عشر فرق ، واختلفت بهذا آراؤهم فى وجه إعجاز القرآن ، فذهب شيطان المتكلمين أبو إسحاق إبراهيم النظام إلى : أن الإعجاز كان بالصرفة ، وبعد كلام النظام صارت فكرة الإعجاز بالصرفة مجال اختلاف بين العلماء ، ما بين مقرر لها ومستنكر ».[1]

جـ - بم انتصر القائلون بالصرفة لرأيهم ؟

انتصر القائلون بالصرفة لرأيهم بمثل فقالوا : « إن الإنسان كثيرا ما يترك عملا هو من جنس أفعاله الاختيارية ، ومما يقع مثله فى دائرة كسبه وقدرته ، إما لأن البواعث على هذا العمل لم تتوافر ، وإما لأن الكسل والصدود أصابه فأقعد همته ، وثبط عزيمته ، وإما لأن حادثا مفاجئا - لا قبل له به - قد اعترضه فعطل آلاته ووسائله ، وعاق قدرته قهراً عنه ، على رغم انبعاث همته نحوه ، وتوجه إرادته إليه ، فكذلك انصراف العرب عن معارضتهم للقرآن ».[2]

---

(١) إعجاز القرآن للرافعى : ١٤٣ - ١٤٤ بتصرف .
(٢) مناهل العرفان ٢/٤١٤ .

د – ما ينتج عن القول بالصرفة :

نتج عن القول بالصرفة : أن القرآن ككلام الناس ، وأنه لم يبلغ درجة من البلاغة والفصاحة تمنع محاكاته ، وتعجز القدرة البشرية عن أن تأتى بمثله ؛ لأن العجز ناشئ عن شيء خارج عن القرآن .

هـ – الرد على القول بالصرفة :

يتضح مما سبق أن القول بالصرفة شبهة على إعجاز القرآن الكريم، وما ذكرناه من أوجه إعجازه السابقة ، وهذا يتطلب منا الرد ، وردنا من وجوه :

[أولا] : قالوا : إن بواعث المعارضة ودواعيها لم تتوافر لديهم .

وهذا الفرض باطل ، يبطله ما سجله التاريخ ، وما ثبت بالتواتر من أن دواعى المعارضة كانت متوافرة لديهم ؛ لأن القرآن الكريم تحداهم أكثر من مرة ، كان آخرها تحديه لهم أن يأتوا بسورة من مثله ، وسجل عليهم العجز بلغة واثقة من عدم استطاعتهم معارضة القرآن ، ولو ساعدهم الإنس والجن فقال سبحانه : ﴿ وإن كنتم في ريب مما نزلنا على عبدنا فأتوا بسورة من مثله وادعوا شهداءكم من دون الله إن كنتم صادقين ، فإن لم تفعلوا ولن تفعلوا فاتقوا النار التي وقودها الناس والحجارة أعدت للكافرين ﴾ [البقرة : ٢٣-٢٤] فكيف لا تثور حميتهم ، وقد كانوا مضرب المثل فى الحمية ؟!

كما أن القرآن الكريم سفه عقولهم ، وأقام حربا شعواء على عقائدهم ، ومعبوداتهم ، وهذا ما ذكرته كتب السيرة : يقول الشيخ الغزالى :

« أما وفد قريش إلى أبى طالب فقد أخذ يقول : يا أبا طالب إن ابن أخيك قد سب آلهتنا ، وعاب ديننا ، وسفه أحلامنا ، وضلل آباءنا ، فإما أن تكفه عنا ، وإما أن تخلى بيننا وبينه ، ويقول : « فمشوا إلى أبى طالب مرة أخرى فقالوا : يا أبا طالب إن لك فينا سنا وشرفا ، وإنا قد استنهيناك أن تنهى ابن أخيك فلم تفعل ، وإنا - والله - لا نصبر على هذا من شتم آلهتنا وآبائنا ، وتسفيه أحلامنا حتى تكفه عنا ، أو ننازله وإياك فى ذلك ، إلى أن يهلك أحد الفريقين » [1] وهذا - بلا شك - يحرك هممهم إلى المساجلة ، والرد لإسكات الخصم ، لكن شيئا لم يقع منهم .

[ثانيا] : قالوا : إن صارفا إلهيا زهدهم فى المعارضة ، فلم تتعلق بها إرادتهم ، ولم تنبعث إليها غرائزهم ، فكسلوا وقعدوا على رغم توافر البواعث والدواعى .

هذا الفرض ينقضه التاريخ أيضا ، فلقد هب العرب هبة رجل واحد يحاولون القضاء على دعوة القرآن بكل الوسائل ، فاستخدموا سلاح التعذيب ، وسلاح المقاطعة ، ومالوا إلى المفاوضة واللين ، ورموه بالسحر والجنون ، واتهموه بالشعر والكهانة ، وكانوا له بالمرصاد يقفون له فى كل طريق يسلكه ليسدوا عليه هذا الطريق ، وتآمروا على قتله ، واضطروا أصحابه إلى ترك وطنهم ، وأهلهم وأولادهم وأموالهم ، وكل ذلك يدل على أنهم لم يكونوا منصرفين عن معارضة دعوة الإسلام ولا نبى الإسلام ، وقد قصّر عليهم رسول الله - صلى الله عليه وسلم - المسافة عندما تحداهم أن يأتوا بمثل أقصر سورة ، فلو كان فى مقدورهم

---

(١) فقه السيرة ١١٥-١١٦ بتصرف يسير .

أن يفعلوا لفعلوا ، ولأسكتوا الرسول – صلى الله عليه وسلم – عن دعوته التى أزعجتهم ، وعدم فعلهم لا يعتبر دليلا على أنهم لم تتعلق إرادتهم بالمعارضة ، ولكن يدل على أنهم تركوا المعارضة لعدم قدرتهم عليها .

كما أن سماعهم القرآن كان يخيفهم ؛ لأنهم يعلمون عظمته وروعته ، فلو كان أسلوبه عاديا ما أخافهم ، ولا أقض مضاجعهم .

لقد اشترطوا على ابن الدغنة – عندما أعلن حمايته للصديق – رضى الله عنه – لما أراد أن يهاجر أن يأمره بعبادة ربه فى داره ، ولا يجهر بصلاته وقراءته .

يقول الدكتور محمد الطيب النجار : « لبث أبو بكر فى داره يعبد ربه ، ثم بدا له أن يبنى مسجدا بفناء داره ، فبناه ، وكان يصلى ويقرأ القرآن ، فيهرع إليه نساء المشركين وأبناؤهم ينظرون إليه ويستمعون ما يقرأ فأفزع ذلك أشراف قريش ، فهل زهدهم صارف إلهى فى المعارضة ؟! أم أنه الخوف من أثر القرآن على سامعيه ؟!(1)

[ثالثا] : قالوا : إن عارضا مفاجئا عطل مواهبهم البيانية ، وعاق قدرهم البلاغية ، وسلبهم أسبابهم العادية إلى المعارضة على الرغم من تعلق إرادتهم بها وتوجه هممهم إليها .

وهذا الفرض ينقضه ما هو معروف من أن العرب حين خوطبوا بالقرآن قعدوا عن معارضته اقتناعا بإعجازه ، وعجزهم الفطرى عن مساجلته . ولو أن عارضا مفاجئا عطل مواهبهم البيانية – كما زعم القائلون – لأثر عنهم أنهم حاولوا المعارضة ، فتوجلوا بأمور عارضة

---

(1) السيرة النبوية للدكتور / محمد الطيب النجار ٦٤ .

عطلت محاولاتهم ، ولالتمسوا الأعذار لأنفسهم ، ولقللوا من شأن القرآن الكريم .

ولو أن عارضا مفاجئا عطل مواهبهم لحاولوا بعد زوال العارض معارضة القرآن الكريم ، لكن شيئا من ذلك لم يحدث ، ويكفى ما شهد به الوليد بن المغيرة – وهو من ألد أعداء الإسلام – من عظمة القرآن الكريم ، فدل ذلك على أنه لم يعرض لهم عارض مفاجئ عطلهم عن معارضة القرآن .

[رابعا] : لو كان الإعجاز بالصرفة – كما يزعمون – لنتج عن ذلك أمران :

١ – أن التحدى لهم يصبح عبثاً لا فائدة فيه ؛ لأنهم بدون القدرة يصبح التحدى لهم كالتحدى للموتى ، وعجزهم لا يعتد به كعجز الموتى .

٢ – أنه يلزم على القول بالصرفة زوال الإعجاز بزوال زمان التحدى ، وخلو القرآن من الإعجاز ، وهذا يبطله إجماع الأمة على أن القرآن الكريم هو معجزة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – الخالدة الباقية إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها .

وبهذا كله يبطل زعمهم أن إعجاز القرآن بالصرفة .

المبحث الرابع

أمور تتعلق بتعظيم القرآن الكريم

١ - فضل قراءة القرآن وحفظه

القرآن الكريم هو كتاب الله المنزل على نبيه – صلى الله عليه وسلم – ، المتعبد بتلاوته ، فهو النبراس الذى يضئ حياتنا ، وهو النور الذى يوضح لنا معالم الطريق إلى رضوان الله تعالى ، من تمسك به هدى إلى صراط مستقيم ، لا تنقضى عجائبه ، ولا يمله العلماء ، ولا يخلق على كثرة الرد .

ولقراءة القرآن الكريم ثواب عظيم ، فهى تجارة رابحة مع الله تعالى ، يقول سبحانه وتعالى : ﴿ إن الذين يتلون كتاب الله وأقاموا الصلاة وأنفقوا مما رزقناهم سرا وعلانية يرجون تجارة لن تبور ، ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور ﴾ [فاطر : ٢٩ ، ٣٠] .

وليس المراد من التلاوة ما يردده اللسان فقط ، وإنما المراد تلاوة يصحبها تدبر وإقبال عليها بالقلب وصرف جميع الحواس والمشاعر إليها وهذا لا يكون خاصا بالقارئ فحسب ، بل هو مما يجب على السامع أيضا ؛ لأن الله – عز وجل – وجهنا إلى ذلك فى قوله سبحانه وتعالى : ﴿ وإذا قرئ القرآن فاستمعوا له وأنصتوا لعلكم ترحمون ﴾ [الأعراف : ٢٠٤] .

ومجلس القرآن الكريم مجلس تبتل ، وخضوع ، وضراعة ، تنزل فيه السكينة على القارئين والسامعين ، وتغشاه الرحمة ، وتحفه الملائكة ، فيجب على المؤمن أن يقدر لهذا المجلس قدره ، سواء أكان قارئا أم سامعا ؛ لأنه يكون فى معية الله تعالى ، وتقديراً لهذا المجلس يجب على كل من حضره أن يعتبر بمواعظ القرآن ، وأن يأتمر بأوامره ، وينزجر بنواهيه ، وأن يحمد الله تعالى على أنعمه عليه .

قال سبحانه وتعالى - آمرا عباده بالتدبر - : ﴿ أفلا يتدبرون القرآن ... ﴾ [النساء : ٨٢] .

وحفظ القرآن الكريم له ثواب عظيم عند الله تعالى يقول تعالى : ﴿ ثم أورثنا الكتاب الذين اصطفينا من عبادنا ﴾ [فاطر : ٣٢] ، ويقول رسول الله – صلى الله عليه وسلم – « خيركم من تعلم القرآن وعلمه »[1] ويقول : « إن الذى ليس فى جوفه شيء من القرآن كالبيت الخرب »[2] . وكان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يفاضل بين الناس بحفظ القرآن الكريم ، روى الإمام الترمذى بسنده عن أبى هريرة قال : « بعث رسول الله – صلى الله عليه وسلم – بعثا – وهم ذو عدد – فاستقرأهم ، فاستقرأ كل رجل منهم ما معه من القرآن ، فأتى على رجل منهم من أحدثهم سنا ، فقال : ما معك يا فلان ؟ قال : معى كذا وكذا وسورة البقرة ، قال : أمعك سورة البقرة ؟ قال : نعم . قال : فاذهب فأنت أميرهم ، فقال رجل من أشرافهم : والله يا رسول الله ما منعنى أن أتعلم سورة البقرة إلا خشية ألا أقوم بها ، فقال رسول الله – صلى الله عليه وسلم – : تعلموا القرآن فاقرءوه وأقرئوه ، فإن مثل القرآن لمن تعلمه فقرأه وقام به كمثل جراب محشو مسكا يفوح بريحه كل مكان ، ومثل من تعلمه فيرقد وهو فى جوفه كمثل جراب وكئ على مسك »[3] .

فهذا يدل على فضل حفظ القرآن الكريم ، ويكفى حافظ القرآن شرفا أن الله سبحانه اصطفاه من خلقه لهذه النعمة الكبرى .

---

(١) سنن الترمذى ٥/١٧٣ ك فضائل القرآن باب ١٥ وقال : حديث حسن صحيح .
(٢) نفسه ٥/١٧٧ ك فضائل القرآن باب ١٨ وقال : حديث حسن صحيح .
(٣) المصدر السابق ٥/١٥٦ ك فضائل القرآن باب ما جاء فى فضل سورة البقرة ، قال : حديث حسن .

٣ - ثواب قارئ القرآن

أما ثواب قارئ القرآن فقد بينه ربنا - عز وجل - في قوله تعالى : ﴿ يرجون تجارة لن تبور ، ليوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله إنه غفور شكور ﴾ [فاطر : ٢٩-٣٠] حيث جعل قراءة القرآن تجارة ، طرفها الأول : قارئ القرآن ، وطرفها الثاني : المولى - عز وجل - ، وهذه التجارة مضمونة الربح ، لا تلحقها الخسارة ، بين سبحانه وتعالى أنه يوفيهم أجورهم يوم القيامة ، ويزيدهم من فضله ، وفضل الله عظيم.

ولقد بين رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ثواب قارئ القرآن ، روى الإمام الترمذي بسنده عن أبي سعيد قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - ، يقول الرب - عز وجل - : من شغله القرآن وذكرى عن مسألتي أعطيته أفضل ما أعطى السائلين ، وفضل كلام الله على سائر الكلام كفضل الله على خلقه ، [1] قال : حديث حسن غريب ، وروى بسنده أيضا عن ابن عباس - رضى الله عنهما - قال : قال رجل : يا رسول الله أي العمل أحب إلى الله ؟ قال : الحال المرتحل . قال : وما الحال المرتحل ؟ قال : الذي يضرب من أول القرآن إلى آخره ، كلما حل ارتحل ، [2] قال : حديث حسن غريب ، وروى بسنده عن عبد الله ابن عمرو بن العاص - رضى الله عنهما - أن النبي - صلى الله عليه وسلم - قال : ، يقال لصاحب القرآن : اقرأ وارتق ، ورتل كما كنت ترتل في الدنيا ، فإن منزلتك عند آخر آية تقرأ بها ، [3] قال : حديث

---

(١) المصدر السابق ١٨٤/٥ .
(٢) نفسه ١٩٨/٥ .
(٣) نفسه ١٧٧/٥ .

حسن صحيح ، وقال أيضا : « من قرأ حرفا من كتاب الله فله حسنة ، والحسنة بعشر أمثالها ، لا أقول : آلم حرف ، ولكن ألف حرف ولام حرف ، وميم حرف » [1] قال : حديث حسن صحيح .

ويكفى قارئ القرآن شرفا أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – جعله خير الناس وأفضلهم .

٣ - حكم نسيان القرآن الكريم

إن من أعظم نعم الله على الإنسان أن يوفقه لحفظ كتابه ، وهذه النعمة ينبغى المحافظة عليها ، يكون ذلك بتعاهد القرآن الكريم بالتلاوة، فإذا ترك الإنسان القراءة فإن ذلك يؤدي إلى نسيان القرآن ، وقد أمرنا رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أن نتعهد القرآن بالقراءة ، حتى لا يضيع منا ما حفظناه ، روى الإمام مسلم بسنده عن عبد الله بن عمر – رضى الله عنهما – أن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – قال : « إنما مثل صاحب القرآن كمثل الإبل المعقلة ، إن عاهد عليها أمسكها ، وإن أطلقها ذهبت » وروى بسنده عن أبى موسى عن النبى – صلى الله عليه وسلم – قال : « تعاهدوا هذا القرآن فو الذى نفس محمد بيده لهو أشد تفلتا من الإبل فى علقها » [2] وقد عد الإمام النووى نسيان القرآن كبيرة لحديث أبى داود والترمذى عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – أنه قال : « عرضت على ذنوب أمتى فلم أر ذنبا أعظم من سورة من القرآن، أو آية أوتيها رجل ثم نسيها » [3] .

---

(١) المصدر السابق ٥/١٧٥ .

(٢) صحيح مسلم ٣/٢٢٦ – ٢٢٨ ك الصلاة باب الأمر بتعهد القرآن .

(٣) سنن الترمذى ٥/١٧٨ – ١٧٩ ك فضائل القرآن باب ١٩ .

٤ - آداب تلاوة القرآن الكريم

إن قارئ القرآن الكريم يكون في حالة قرب من الله تعالى ، ولكي يكون ثوابه كبيراً فإنه ينبغي أن يتأدب بآداب عند تلاوته ، وهذه الآداب ما يأتي :

١ - أن يكون القارئ على وضوء ؛ لأن قراءة القرآن من أفضل الذكر .

يقول الإمام الزركشي في البرهان :

« ويستحب أن يكون متوضئا ، ويجوز للمحدث - أي حدثا أصغر - قال إمام الحرمين وغيره : لا يقال إنها مكروهة ؛ فقد صح أنه - صلى الله عليه وسلم - كان يقرأ مع الحدث وعلى كل حال سوى الجنابة، وفي معناها - أي الجنابة - الحيض والنفاس .

وللشافعي قول قديم في الحائض تقرأ خوف النسيان .

وقال أبو الليث : لا بأس أن يقرأ الجنب والحائض أقل من آية واحدة.

وتكره القراءة حال خروج الريح ، وأما غيره من النواقض كاللمس والمس ونحوه فيحتمل عدم الكراهة ؛ لأنه غير مستقذر عادة » .[1]

ويقول الإمام السيوطي في الإتقان :

« وأما الجنب والحائض فتحرم عليهما القراءة ، نعم يجوز لهما النظر في المصحف وإمراره على القلب ، وأما متنجس الفم فتكره له القراءة ، وقيل : تحرم كمس المصحف باليد النجسة » .[2]

---

(١) البرهان ٥٤٣/١٠ .
(٢) الإتقان /١٤٤ .

٢ – أن يكون فى مكان نظيف ، وأفضله المسجد ، وذلك لأنه المناسب لعظمة القرآن ، وتجوز قراءته فى الطريق . أجاز ذلك النووى .

٣ – أن يكون القارئ جالسا يستقبل القبلة : سئل سعيد بن المسيب عن حديث وهو متكئ ، فاستوى جالسا وقال : أكره أن أحدث عن رسول الله – صلى الله عليه وسلم – وأنا متكئ ، وكلام الله تعالى أولى » .(١)

٤ – أن يستاك عند القراءة تعظيما للقرآن ، روى ابن ماجة عن على موقوفا : إن أفواهكم طرق للقرآن ، فطيبوها بالسواك » .(٢)

يقول الإمام الزركشى :

« يستحب الاستياك وتطهير فمه ، والطهارة للقراءة باستياكه ، وتطهير بدنه بالطيب المستحب تكريما لحال التلاوة ، لابساً من الثياب ما يتجمل به بين الناس ؛ لكونه بالتلاوة بين يدى المنعم المتفضل بهذا الإيناس ، فإن التالى للكلام بمنزلة المكالم لذى الكلام ، وهذا غاية التشريف من فضل الكريم العلام » .(٣)

٥ – أن يتعوذ فى بداية القراءة امتثالا لأمر الله تعالى : ﴿ فإذا قرأت القرآن فاستعذ بالله من الشيطان الرجيم ﴾ [النحل : ٩٨] .

وذهب قوم إلى وجوب التعوذ ، فإن قطع القراءة وأراد العود إليها

---

(١) البرهان : ٥٤٣/١ .
(٢) سنن ابن ماجة ١٠٦/١ ك الطهارة وسننها باب السواك .
(٣) البرهان ٥٤٢/١ – ٥٤٣ .

جدد . وإن قطعها لعذر عازما على العود كفاه التعوذ الأول ما لم يطل الفصل ، وصفته المختارة : أعوذ بالله من الشيطان الرجيم » .[١]

٦ – أن تكون القراءة ترتيلا ؛ لقول الله تعالى : ﴿ ورتل القرآن ترتيلا ﴾ [المزمل : ٤] .

روى الإمام أبو داود وغيره أن أم سلمة – رضي الله عنها – سئلت عن قراءة النبى – صلى الله عليه وسلم – فنعتت قراءته فإذا هى تنعت قراءته حرفا حرفا » .[٢]

وفى صحيح البخارى عن أنس – رضى الله عنه – أنه سئل عن قراءة رسول الله – صلى الله عليه وسلم – فقال : كانت مدا . ثم قرأ : بسم الله الرحمن الرحيم ، يمد «الله» ويمد «الرحمن» ويمد «الرحيم» .[٣]

وفي الصحيحين عن ابن مسعود – رضي الله عنه – أن رجلا قال له : « إنى أقرأ المفصل فى ركعة واحدة ، فقال : أهذاً كهذّ الشعر ؟ إن قوما يقرءون القرآن لايجاوز تراقيهم ، ولكن إذا وقع فى القلب فرسخ فيه نفع » .[٤]

ومعنى : الهذ : سرعة القراءة .[٥]

ولقد أمر الله بالترتيل لما يترتب عليه من الفهم ، والتدبر ، والتأثير على القلب . يقول الإمام الزركشي : « كمال ترتيله تفخيم ألفاظه ،

(١) الإتقان ١٤٤ .
(٢) سنن أبى داود ٧٤/٢ – ٧٥ ك الصلاة باب استحباب الترتيل فى القراءة .
(٣) صحيح البخارى ٢٣٤/٣ – ٢٣٥ ك فضائل القرآن باب مد القراءة .
(٤) صحيح مسلم ٢٨٠/٣ ك الصلاة باب ترتيل القراءة .
(٥) القاموس المحيط ٣٧٤/١ .

والإبانة عن حروفه ، والإفصاح لجميعه بالتدبر حتى يصل بكلّ ما بعده ، وأن يسكت بين النَّفس والنفس ؛ حتى يرجع إليه نفسه ، وألا يدغم حرفا فى حرف ؛ لأن أقل ما فى ذلك أن يسقط من حسناته بعضها .

وقيل : أقل الترتيل أن يأتى بما يبين ما يقرأ به ، وإن كان مستعجلا فى قراءته .[1]

ويقول الإمام السيوطى :

« واتفقوا على كراهة الإفراط فى الإسراع قالوا : وقراءة جزء بترتيل أفضل من قراءة جزئين فى قدر ذلك الزمان بلا ترتيل ، قالوا : واستحباب الترتيل للتدبر ؛ ولأنه أقرب إلى الإجلال والتوقير ، وأشد تأثيرا فى القلب ؛ ولهذا يستحب للأعجمى الذى لا يفهم معناه » .[2]

٧ – أن يتدبر ما يقرأ من الآيات ؛ لأن التدبر هو الهدف الأعظم من القراءة ، يقول الله تبارك وتعالى : ﴿ كتاب أنزلناه إليك مبارك ليدبروا آياته وليتذكر أولو الألباب ﴾ [ص : ٢٩] .

يقول الإمام السيوطى – مبينا صفة التدبر – :

« وصفة ذلك أن يشغل قلبه بالتفكر في معنى ما يلفظ به ، فيعرف معنى كل آية ، ويتأمل الأوامر والنواهى ، ويعتقد قبول ذلك ، فإن كان مما قصر عنه فيما مضى اعتذر واستغفر ، وإذا مر بآية رحمة استبشر وسأل ، أو عذاب أشفق وتعوذ ، أو تنزيه نزه وعظم ، أو دعاء تضرع وطلب » .[3]

---

(١) البرهان ١/٥٣٢ .
(٢) الإتقان / ١٤٥ .
(٣) المصدر السابق /١٤٦ .

أخرج الإمام مسلم عن حذيفة قال : صليت مع النبى - صلى الله عليه وسلم - ذات ليلة ، فافتتح « البقرة » ، ثم « النساء »، ثم « آل عمران » ، فقرأها يقرأ مترسلا ، إذا مر بآية فيها تسبيح سبح ، وإذا مر بسؤال سأل ، وإذا مر بتعوذ تعوذ » .[1]

وأخرج البيهقى بسنده من حديث أبى هريرة مرفوعا : من قرأ ﴿ والتين والزيتون ﴾ فانتهى إلى آخرها ، فليقل : بلى وأنا على ذلك من الشاهدين ، ومن قرأ ﴿ لا أقسم بيوم القيامة ﴾ فانتهى إلى آخرها ﴿ أليس ذلك بقادر على أن يحيى الموتى ﴾ فليقل : بلى . ومن قرأ ﴿ والمرسلات ﴾ فبلغ : ﴿ فبأى حديث بعده يؤمنون ﴾ فليقل : « آمنا بالله » .[2]

٨ - التأثر بآيات القرآن ، والتفاعل معها ، ولنا فى رسول الله - صلى الله عليه وسلم - القدوة الحسنة فقد ثبت فى الصحيحين أن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - طلب من ابن مسعود أن يقرأ عليه القرآن ، فقرأ ابن مسعود سورة النساء ، حتى أتى إلى قول الله تعالى : ﴿ فكيف إذا جئنا من كل أمة بشهيد وجئنا بك على هؤلاء شهيدا ﴾ قال له رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « حسبك الآن » ، فالتفت إليه ابن مسعود فإذا عيناه تذرفان » .[3]

ويقول ربنا - عز وجل - فى صفة المؤمنين : ﴿ إنما المؤمنون

---

(١) صحيح مسلم ٣/١٩٩ ك الصلاة باب استحباب تطويل القراءة فى صلاة الليل .

(٢) السنن الكبرى للبيهقى ٢/٣١٠ ك الصلاة باب الوقوف عند آية الرحمة وآية العذاب وآية التسبيح .

(٣) صحيح البخارى ٣/٢٣٥ ك فضائل القرآن باب قول المقرئ للقارئ حسبك .

الذين إذا ذكر الله وجلت قلوبهم وإذا تليت عليهم آياته زادتهم إيمانا وعلى ربهم يتوكلون ﴾ [الأنفال : ٢] ويقول سبحانه وتعالى : ﴿ إن الذين أوتوا العلم من قبله إذا يتلى عليهم يخرون للأذقان سجدا ، ويقولون سبحان ربنا إن كان وعد ربنا لمفعولا ، ويخرون للأذقان يبكون ويزيدهم خشوعا ﴾ [الإسراء : ١٠٧-١٠٩] .

٩ - يسن تحسين الصوت بالقراءة وتزيينها ، روى أبو داود بسنده عن البراء بن عازب قال : قال رسول الله - صلى الله عليه وسلم - : « زينوا القرآن بأصواتكم » .(١)

وعن رسول الله - صلى الله عليه وسلم - أنه قال : « ليس منا من لم يتغن بالقرآن » .(٢)

وفى صحيح البخارى عن أبى هريرة عن النبى - صلى الله عليه وسلم - قال : « ما أذن الله لشىء ما أذن للنبى - صلى الله عليه وسلم - أن يتغنى بالقرآن » .(٣)

١٠ - يسن أن يقرأ بترتيب المصحف ، فترتيب المصحف توقيفى من الله تبارك وتعالى ، والالتزام بهذا الترتيب له ثواب عظيم ؛ لأن القارئ بذلك يحافظ على قدسية كتاب الله تعالى ، يقول الإمام السيوطى:

« الأولى أن يقرأ على ترتيب المصحف ، قال فى شرح المهذب : لأن ترتيبه لحكمة فلا يتركها إلا فيما ورد فيه الشرع ، كصلاة صبح يوم الجمعة بـ﴿ آلم تنزيل ...﴾ و﴿ هل أتى ... ﴾ ونظائره ، فلو فرق

(١) ، (٢) سنن أبى داود ٢/٧٥ ك الصلاة باب استحباب الترتيل فى القراءة .
(٣) صحيح البخارى ٣/٢٣١ ك فضائل القرآن باب من لم يتغن بالقرآن .

السور أو عكسها جاز ، وترك الأفضل ، قال : وأما قراءة السورة من آخرها إلى أولها فمتفق على منعه ؛ لأنه يذهب بعض نوع الإعجاز ، ويزيل حكمة الترتيب ، وهذه القراءة تسمى : القراءة المنكوسة ، وقد سئل ابن مسعود عن رجل يقرأ القرآن منكوسا ، قال : ذلك منكوس القلب أما خلط سورة بسورة فعد الحليمي تركه من الآداب ، وقد نقل القاضي أبو بكر الإجماع على عدم جواز قراءة آية آية من كل سورة ».[1]

فقراءة القرآن الكريم على تأليفه الموجود في المصحف أولى ؛ لأن هذا من عند الله تبارك وتعالى .

١١ – يسن السجود عند قراءة آية بها سجدة ، وذلك إذا كان متوضئا مستقبل القبلة ، فإذا لم يكن مستقبل القبلة كأن كان يقرأ في الطريق ، أو على الراحلة ، أو في السيارة مثلا ، فإنه يقول عند موضع السجدة : « سبحان الله ، والحمد لله ، ولا إله إلا الله ، والله أكبر ، ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم » ثلاث مرات .

وآيات السجدة في القرآن الكريم أربع عشرة : في الأعراف ، والرعد ، والنحل ، والإسراء ، ومريم ، وفي الحج سجدتان ، وفي الفرقان ، والنمل ، وألم تنزيل ، وفصلت ، والنجم ، وإذا السماء انشقت ، واقرأ باسم ربك ، وأما السجدة في « ص » فمستحبة ، وليست من عزائم السجود – أي متأكداته –.[2]

١٢ – ينبغي أن لا ينشغل القارئ عن القراءة بالضحك ، والعبث ،

---

(١) الإتقان / ١٥٠ بتصرف .
(٢) المصدر السابق / ١٥١ .

والنظر إلى ما يلهى ؛ لأن القارئ فى رحاب ربه ، فلا ينصرف عنه إلى غيره ، كما يسن عدم قطع القراءة لمكالمة الناس .

يقول الإمام الزركشى فى البرهان : « قال الحليمى : لأن كلام الله لا ينبغى أن يؤثر عليه كلام غيره ، وأيده البيهقى بما فى الصحيح : كان ابن عمر إذا قرأ القرآن لم يتكلم حتى يفرغ منه » .[1]

هذه بعض الآداب التى يسن أن يتأدب بها القارئ عند قراءة القرآن الكريم ، لينال ثواب الله كاملا ، وإن كانت هناك بعض الآداب الأخرى فإن ما ذكرته فيه الكفاية .

٥ - أحكام تتعلق باحترام المصحف وتعظيمه

إن القرآن الكريم كلام الله تعالى ، له مكانة عظيمة في القلوب ، وقدسية لم ينلها كتاب من الكتب السابقة ولذا يجب أن نعظمه ونحترمه، ومن مظاهر احترامه :

أنه يسن تطييب المصحف ، وجعله فى مكان عال ، ولا يوضع فوقه شىء من الكتب حتى يكون عاليا على سائر الكتب ، وأن يبعده عن النجاسات ، كما يستحب تقبيل المصحف ؛ لأن عكرمة بن أبى جهل كان يقبله ، وبالقياس على تقبيل الحجر الأسود ، ولأنه هدية الله لعباده ؛ فشرع تقبيله .

ويحرم توسد المصحف وغيره من كتب العلم ، لأن فيه - أى التوسد - إذلالا وامتهانا ، وكذلك مد الرجلين إلى شىء من القرآن أو كتب العلم .

---

(١) البرهان ١/٥٤٧ - ٥٤٨ .

ويحرم كتابة القرآن بشيء نجس ؛ لأن ذلك لا يناسب عظمته .
ويحرم السفر بالقرآن إلى أرض العدو خوف أن تناله أيديهم ، فإن كثر الغزاة ، وأمن استيلاء العدو عليه لم يمنع حمله ، .[1]

٦ - الحكم إذا احتيج إلى تعطيل بعض أوراق المصحف

قد يلحق بعض أوراق المصحف أمور مثل فصل بعض أوراقه عن البعض الآخر كما يحدث من الصبيان الذين يحفظون القرآن فى الكتاتيب الآن ، وقد تصاب بعض الأوراق بالبلى ، وفى هذه الأحوال نحتاج إلى تعطيل هذه الأوراق ، بما يناسب عظمة القرآن الكريم مع المحافظة على مكانته ، فماذا يفعل من يريد ذلك ؟

١ - قال الحليمى : له غسلها بالماء ، وإن أحرقها بالنار فلا بأس ؛ لأن عثمان - رضى الله عنه - أحرق مصاحف فيها آيات وقرءات منسوخة ، ولم ينكر أحد من الصحابة ذلك .

ولا يجوز وضع هذه الأوراق فى شق أو غيره ليحفظ ؛ لأنها قد تسقط وتوطأ ، ولا يجوز تمزيقها ؛ لما فيه من تقطيع الحروف ، وتفرقة الكلم ، وفى ذلك إزراء بالمكتوب .

٢ - ذكر غيره أن الإحراق أولى من الغسل ؛ لأن الغسالة قد تقع على الأرض .

٣ - قال بعض الحنفية: إن المصحف إذا بلى لا يحرق ، بل تحفر له الأرض ويدفن . ونقل عن الإمام أحمد أيضا . وقد يتوقف فيه لتعرضه للوطء بالأقدام ، .[2]

---

(١) المصدر السابق ١/ ٥٦٠ - ٥٦١ بتصرف .
(٢) نفسه ١/ ٥٦٠ بتصرف .

وأرى أن تعطيل هذه الأوراق يكون بإحراقها ، وسندى فى ذلك ما فعل سيدنا عثمان – رضى الله عنه – وعدم اعتراض أحد من الصحابة عليه ، فإن سكوتهم يعد إجماعا . وفى حرق الأوراق صيانة لها عن أن تداس بالأقدام .

كما أن غسل الأوراق المطبوعة فى هذه الأيام لا يقوم بمسحها ، بل يؤدى إلى تمزيق الأوراق ، مع بقاء الألفاظ مكتوبة .

وبهذا أكون قد أوضحت ما يجب علينا نحو كتاب الله تعالى .

أسأل الله العظيم أن يعيننا على المداومة على حفظه ، وأن يعيننا على التأدب بما ذكرت ، وأن ينفعنا به ؛ إنه سميع مجيب الدعاء .

والله تعالى أعلم

مراجع الكتاب

أ – القرآن الكريم .

ب – كتب التفسير :

١ – جامع البيان فى تفسير القرآن للإمام محمد بن جرير الطبرى طبعة دار الريان للتراث ١٤٠٧هـ – ١٩٨٧م .

٢ – الجامع لأحكام القرآ للإمام القرطبى دار الحديث الطبعة الثانية ١٤١٦هـ – ١٩٩٦م .

٣ – الدر المنثور فى التفسير بالمأثور للإمام السيوطى طبعة دار المعرفة.

٤ – روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى للآلوسى البغدادى طبعة دار الفكر ١٣٩٨هـ – ١٩٧٨م .

٥ – السراج المنير فى الإعانة على معرفة بعض معانى كلام ربنا الحكيم الخبير للإمام الخطيب الشربينى ت سنة ٩٧٧ هـ طبعة المطبعة الخيرية ١٣١١هـ .

٦ – فتح القدير الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير للشوكانى طبعة دار الوفاء الطبعة الثانية ١٤١٨هـ – ١٩٩٧م .

٧ – تفسير الفخر الرازى المشتهر بالتفسير الكبير للإمام محمد الرازى طبعة دار الفكر ١٤١٤هـ – ١٩٩٤م .

٨ – تفسير القرآن العظيم للإمام ابن كثير طبعة عيسى الحلبى .

٩ – لباب التأويل فى معانى التنزيل للإمام الخازن طبعة دار الكتب العلمية الطبعة الأورلى ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م .

١٠ – معالم التنزيل للبغوى طبعة دار الكتب العلمية الطبعة الأولى ١٤١٥هـ – ١٩٩٥م .

١١ – تفسير المنار للشيخ محمد رشيد رضا طبعة الهيئة المصرية للكتاب.

جـ : كتب السنة :

١ – دلائل النبوة ومعرفة أحوال صاحب الشريعة للإمام البيهقى علق عليه وخرج أحاديثه د/ عبد المعطى قلعجي طبعة دار الكتب العلمية بيروت ، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ – ١٩٨٥م .

٢ – سنن أبى داود طبعة دار الريان للتراث ١٤٠٨هـ – ١٩٨٨م .

٣ – سنن ابن ماجة تحقيق محمد فؤاد عبد الباقي طبعة دار إحياء التراث ١٣٩٥هـ – ١٩٧٥م ، ودار الفكر.

٤ – سنن الترمذى تحقيق إبراهيم عطوة طبعة مصطفى الحلبى الطبعة الأولى ١٣٨٢هـ – ١٩٦٢م .

٥ – السنن الكبرى للإمام البيهقى طبعة دار الفكر .

٦ – شرح النووى على صحيح مسلم طبعة دار الغد العربى ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م .

٧ – صحيح البخارى بحاشية السندى طبعة عيسى الحلبى .

٨ – صحيح مسلم بشرح النووى طبعة دار الغد العربى الطبعة الأولى ١٤١٠هـ – ١٩٩٠م .

٩ – كشف الخفاء ومزيل الإلباس للعجلونى طبعة مكتبة التراث الإسلامى حلب .

١٠ –مجمع الزوائد للهيثمى، طبعة دار الكتاب العربى بيروت لبنان.

١١-المستدرك على الصحيحين للحاكم النيسابوري وبذيله التخليص للذهبي طبعة دار الفكر ١٣٩٨هـ- ١٩٧٨م.
١٢-مسند الإمام أحمد طبعة دار صادر بيروت.
١٣-المعجم الأوسط للطبراني طبعة دار الحرمين ١٤١٦هـ-١٩٩٥م.

د - علوم القرآن :

١ - الإتقان فى علوم القرآن للسيوطى طبعة دار مصر للطباعة .
٢ - أسباب النزول للواحدى النيسابورى طبعة مكتبة المتنبى .
٣ - إعجاز القرآن للقاضى أبى بكر الباقلانى هامش الإتقان طبعة المكتبة الثقافية بيروت ١٩٧٣م .
٤ - إعجاز القرآن والبلاغة النبوية لمصطفى صادق الرافعى طبعة دار الكتاب العربى التاسعة ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م .
٥ - البرهان فى علوم القرآن للزركشى طبعة دار الفكر ، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ - ١٩٨٨م .
٦ - التفسير والمفسرون للدكتور محمد حسين الذهبى طبعة مكتبة وهبة الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ - ١٩٨٩م .
٧ - علوم القرآن والحديث لأحمد محمد على داود طبعة دار البشير عمان .
٨ - علوم القرآن الكريم للدكتور عبد المنعم النمر طبعة دار الكتب الإسلامية الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م .
٩ - قاموس القرآن للفقيه الحسين بن محمد الدامغانى تحقيق عبد العزيز سيد الأهل طبعة دار العلم للملايين ، الطبعة الخامسة ١٩٨٥م .

١٠ - كلمات القرآن تفسير وبيان للشيخ حسنين مخلوف هامش المصحف طبعة مكتبة عبد المجيد مرزا .

١١ - لباب النقول فى أسباب النزول للسيوطي هامش المصحف طبعة مكتبة عبد المجيد مرزا .

١٢ - مباحث فى علوم القرآن للدكتور صبحى الصالح طبعة دار العلم للملايين الطبعة السابعة عشرة .

١٣ - مباحث فى علوم القرآن لمناع القطان طبعة مؤسسة الرسالة بيروت الطبعة السابعة والعشرون ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م .

١٤ - المدخل إلى علم التفسير طبعة وزارة الأوقاف .

١٥ - المعجزة الكبرى للإمام محمد أبو زهرة طبعة دار الفكر ١٤١٨هـ - ١٩٩٨م .

١٦ - المفردات فى غريب القرآن للراغب الأصفهانى طبعة مصطفى الحلبى .

١٧ - مناهل العرفان فى علوم القرآن للشيخ محمد عبد العظيم الزرقانى طبعة دار إحياء التراث .

١٨ - من روائع القرآن للدكتور محمد سعيد البوطى طبعة مؤسسة الرسالة ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

١٩ - هدى الفرقان فى علوم القرآن للدكتور غازي عناية طبعة عالم الكتب الطبعة الأولى ١٤١٦هـ - ١٩٩٦م .

هـ - مراجع أخرى :

١ - تاريخ بغداد للحافظ أبى بكر أحمد بن على الخطيب البغدادى ت سنة ٤٦٣هـ طبعة دار الكتب العلمية .

٢ - دراسات فى السيرة النبوية للدكتور محمد الطيب النجار طبعة دار الاتحاد العربى للطباعة .

٣ - السيرة النبوية لابن هشام تحقيق محمد فتحى السرجانى طبعة دار التوفيقية.

٤ - الشفا بتعريف حقوق المصطفى للقاضى عياض طبعة دار التراث.

٥ - فقه السيرة للشيخ محمد الغزالى طبعة دار الكتب الحديثة الطبعة السابعة ١٩٧٦م .

٦ - فقه السنة للشيخ سيد سابق طبعة دار التراث العربى .

٧ - القاموس المحيط للفيروز آبادى طبعة مصطفى الحلبى الطبعة الثانية ١٣٧١هـ - ١٩٥٢م .

٨ - لسان العرب لابن منظور طبعة دار صادر بيروت الطبعة الثالثة ١٤١٤هـ - ١٩٩٤م .

٩ - مختار الصحاح للرازى طبعة عيسى الحلبى .

١٠ - مختصر صفوة البيان فى شرح منهاج الوصول إلى علم الأصول للقاضى البيضاوى طبعة مكتبة الكليات الأزهرية .

١١ - معجم الأدباء لياقوت الحموى طبعة دار الفكر الطبعة الثالثة ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م .

فهرس الموضوعات

المبحث الثالث

رقم الإيداع ٢٠٠١/٤٢٥٦